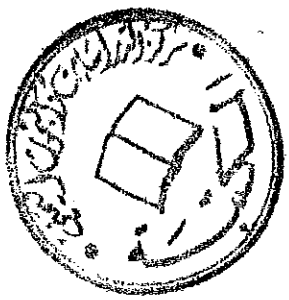

من تاريخ اليمن الحديث

١٥١٧ – ١٨٤٠

معهد البحوث والدراسات العربية

من تاريخ اليمن الحديث

١٥١٧ — ١٨٤٠

الدكتور عبد الحميد البطريق

١٩٦٩

المكتبة
مركز الدراسات السياسية والتاريخية
الرقم الدولي ٥٧٠ ٦٦
التاريخ

الفصل الأول

مقدمة

اليمن من القديم إلى الحديث

أجمع مؤرخو التاريخ القديم على أن اليمن كانت مهد حضارة قديمة زاهرة فقد كانت هناك مدن آهلة بالسكان ، عامرة بالقصور ، وكانت تنعم بمدنيّة شاملة ، تأسست على نمو التجارة وتقدم الصناعة ، وصفها الرحالون القدماء وعلى رأسهم كبيرهم هيرودوتس ، الذى وصف اليمن فى عهده بأنها كانت من أغنى بلاد العالم ، فتجارتها كانت واسعة المدى ، وبها العلماء والفنيون الذين يستخرجون المعادن ، ويتقنون فن المعمار وبناء السدود ويبرعون فى هندسة الرى والزراعة ويعرفون كثيرا من الصناعات كالنسيج والدباغة وصنع الأسلحة . كل ذلك عرفناه عن طريق الحفريات الأثرية التى قام بها العلماء فى بعض بلاد اليمن مثل مأرب ومعين وظفار وغَيْمان وصُرواح وذمار وغيرها من مناطق اليمن . ثم عن طريق العاديات القديمة التى درسها علماء الآثار والتى كان يعثر عليها بعض الأعراب النازلون قرب مأرب ثم يجلبونها إلى أسواق صنعاء ، كفصوص الخواتم الثمينة الدقيقة الصنع والمنقوش عليها كتابات بالخط الحميرى القديم ، كما عثر الأهالى على الكثير من الأحجار المكتوبة والتماثيل ولوحات البرونز والحلى والعملة القديمة ، أخذت إلى عدن ومنها تسربت إلى المتاحف الأوربية والأمريكية(١) .

---

(١) انظر مقال الأستاذ الدكتور أحمد فخرى فى كتاب « العالم العربى » الذى أصدرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية عام ١٩٤٩ ص ١٢١ .

حضارة سبأ :

وقد حاول الأثريون البحث فى تلك المناطق التى حكمها ملوك سبأ ثم الحميريون، فكانوا يعثرون فى المدن المدفونة على بقايا المبانى التى تدل على مدى تقدم الحضارة اليمنية وعلى الأخص حضارة سبأ التى كانت من أرقى الحضارات القديمة فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد وصف القرآن الكريم مملكة سبأ التى قامت فى مأرب حيث قال: « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيةٌ جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ العرِم ، وبدَّلناهم بجنَّتيهم جنتين ذواتى أُكُلٍ وخَمْطٍ وأَثْلٍ وشىءٍ من سِدْرٍ قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور »(١).

قوافل التجارة الهندية :

وقد كانت قوافل التجارة الهندية تصل من حضر موت إلى مأرب عاصمة سبأ ، ثم تتجه منها شمالا إلى مكة ، ثم إلى البتراء عاصمة الأنباط ، فغزة ومنها بطريق البحر إلى سائر الأنحاء .

سد مأرب :

وكان سد مأرب أعظم مشروع لخزن المياه عرفه التاريخ ، عندما كانت تصل إليها السيول التى تنحدر من جبلين أقيم بينهما سد صخرى عظيم يحجز المياه المتدفقة ، لكى يصرفها المهندسون من فتحات خاصة ، بحسب حاجة البلاد للرى والسُّقيا ، لذلك وُصفت الزراعة على جانبى السد بأنها جنتان عن يمين وشمال . وقد دل تشييد هذا السد على مدى التقدم الحضارى فى الهندسة ، وعلى ثروة البلاد التى ساعدت على إقامته قويا متيناظل عدة قرون يقاوم قوة التدفق وعوامل التعرية ، ويعود ذلك الازدهار الذى نعمت به مملكة سبأ أيضا إلى

(١) سورة سبأ ، الآية ١٥ . وقد كان العرب فى اليمن فى أشد الحاجة لخزن الأمطار فبلغوا من الاعتناء ببناء السدود والحياض أقصى درجة يتصورها العقل ، وروى الهمدانى أنه كان يطلق على البلاد اسم (اليمن الخضراء) لكثرة أشجارها وفواكهها ومحصولاتها — وتحدث المؤرخون القدماء عن تجارتها مع البطالمة فى مصر ، والفينيقيين بالشام .

تجارة القوافل واحتكارها للتوابل والبخور ، وبسط سيطرتهم على خطوط المواصلات المؤدية — عبر الحجاز — إلى الشمال .

الهجرة بعد تهدم السد :

ولما ضعفت الدولة وعجزت عن صيانة السّد وتجديده وشعر القوم بأنه فى طريقه إلى التهدم هاجر الكثير من الأهلين من جواره ما بين القرنين الثانى والثالث الميلاد.

وأخيرا طغى الماء وتفجر السد وتفرق من بقى من الأهلين حيث هاجرت كل طائفة إلى مكان . وقيل إن أقواما منهم هاجروا إلى الشام وأسسوا دولة الغساسنة ، وآخرون إلى يثرب (المدينة) وهم الأوس والخزرج ، وآخرون إلى العراق وهم الذين ألفوا دولة المناذرة . وآخرون وصلوا إلى جبال السراة فى عسير أو غيرها من مناطق شبه الجزيرة العربية . ومن هنا جاء المثل المعروف « تفرق القوم أيدى سبأ » .

ولسنا فى هذا البحث بصدد الكلام على الدول العديدة التى قامت فى بلاد اليمن فى تاريخها القديم ، فتلك دراسة تناولتها الأبحاث العديدة التى عالجت تاريخ الحضارة اليمنية القديمة ، ويكفينا أن نذكر بعض معالم هذا التاريخ .

— ١ —

الدولة الحميرية :

ولعل من أهم تلك المعالم قيام دولة حمير فى مأرب فى عام ١١٥ ق . م وهى الدولة التى أسسها حمير بن سبأ . وفى ظل تلك الدولة توحدت اليمن السعيدة وأصبح الجنوب العربى كله فى القرن الثالث الميلادى وحدة واحدة تحت سلطان الحميريين ، الذين استطاعوا حماية البلاد ضد الغزاة والطامعين ، وكان أكبر خطر يهدد البلاد هو محاولة الرومان فى عام ٢٤ ق . م غزو الجنوب العربى وارتدادهم عنه فاشلين بعد أن فقدوا عشرة آلاف جندى .

— ٢ —

الغزو الحبشى :

وعندما انتهى العصر الذهبى للدولة الحميرية وبدأت فى الانحلال والضعف طمع الأحباش فى العربية السعيدة منذ عام ٣٤٠ م ، ولم يعد فى مقدور الملوك الحميريين، الذين كانوا يلقبون « بالتُبع » ، أن يقاوموا الغزاة . ونجح الأحباش فى الاستيلاء على اليمن . وقد بدأت قصة هذا الغزو فى عهد الملك الحميرى «ذَرْعَة» الملقب (ذو نواس) ، الذى اعتنق اليهودية وحاول إجبار رعاياه على الإيمان بها ، وكان منهم من اعتنق المسيحية ، وعندما أبوا تغيير دينهم أغلق عليهم أبواب المدينة وجاء بمن لم يتبع دينه إلى أخدود أشعل فيه النار وألقى فيه بكل من لم يرتد عن المسيحية ، وراح (أصحاب الأخدود) شهداء التمسك بدينهم .

القيصر الرومانى يحرض النجاشى :

وعلم قيصر الرومان (يوستنيوس الأول) بما يتعرض له المسيحيون فى نجران ، فكتب إلى نجاشى الحبشة يستحلفه إنقاذهم ، وتحمس النجاشى للقيام بتلك المهمة وأرسل حملته بقيادة قائد اسمه أرياط ، نجح فى احتلال اليمن ، ولكنه كان جبارا مستبدا، ظلم اليمنيين وأذلهم ، فشكوا أمرهم إلى ضابط من جيش الأحباش اسمه «أبرهة» ، فقاد ثورة ضد « أرياط » وقتله وتولى الحكم فى اليمن .

أبرهة وعام الفيل ٥٧٠ م :

«وأبرهة» هو صاحب الحادث الكبير الذى أطلق عليه عام الفيل (٥٧٠ ميلادية)، عندما حاول أن يحول الحج من مكة إلى صنعاء، وخرج بقواته إلى مكة لتخريب الكعبة وهدم البيت الحرام . وعندما تهيأ أبرهة لدخول مكة على رأس جيشه أعد فيله الكبير ليدخل به ، ولكن عندما أصبحت القوات الحبشية على مقربة من مكة

أبى فيل أبرهة أن يتقدم وبرك فى الطريق ، وعندما وجهوه نحو اليمن هرول عائدا، وحاولوا بعد ذلك توجيهه نحو مكة فأبى . ثم فشت الأمراض فى جند الأحباش وأخذ لحمهم يتناثر فذعر أبرهة وقفل راجعا بمن بقى من قواته على قيد الحياة حتى وصل إلى صنعاء حيث مات هناك . وسمى هذا العام بعام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية، وهى السنة التى شَرُفت بمولد النبى صلى الله عليه وسلم .

— ٣ —

وظل الأحباش يستعمرون اليمن حوالى نصف قرن إلى أن ظهر شريف من أشراف البلاد اسمه « سيف بن ذى يزن الحميرى » ، وهو سليل بيت من ملوك حمير ، استطاع أن يخلص الجنوب العربى من حكم الأحباش بعد أن استنجد بالفرس فى عهد كسرى أنو شروان ، وتم له تحرير البلاد ، ثم حكمها فى ظل الحماية الفارسية . وظلت اليمن تعترف بسيادة الفرس إلى أن ظهر الإسلام ودخل اليمانيون فى دين الله أفواجا .

أعلنت معظم القبائل إسلامها عن طريق الوفود التى أرسلتها إلى المدينة عقب فتح مكة فى أوائل عام ٦٣٠ م ، وارتبطت اليمن فى العهد الإسلامى بالحجاز فى إدارتها وحكمها فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ولاة يعينهم الخليفة .

ومن أشهر الولاة الذين عينهم العباسيون على اليمن «معن بن زائدة» الذى اشتهر فى التاريخ بحلمه الذى يضرب به المثل وذلك فى عهد « أبى جعفر المنصور » و « محمد بن إبراهيم الزيادى » فى عهد «المأمون» « والمعتصم » ، وابنه « ابراهيم ابن محمد الزيادى فى عهد المتوكل » .

— ٤ —

ولما تفككت عرى الدولة العباسية ، نشأت فى أطرافها دويلات جديدة ، تحكمها أسرات مستقلة — كدولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، ودولة الأغالبة فى

افريقيه (تونس) . وجاء دور اليمن حيث قام « محمد بن عبدالله زياد » (٢٠٤ — ٢٤٥ هـ) بتأسيس دولة بنى زياد ، وبنى مدينة جديدة فى تهامة أسماها « زبيد » اتخذها مقرا لحكمه . وظل الزياديون يتداولون الحكم من بعده ، ولكنهم كانوا يحتفظون بالولاء للدولة العباسية إلى أن تولى الحكم « أبو الجيش اسحق بن إبراهيم » (٩٠٣ — ٩٨١ م) فأعفى نفسه من الولاء للعباسيين وحكم البلاد مستقلا. وشجعه على ذلك ما علمه من قتل الخليفة المتوكل وخلع المستعين ، واستبداد القواد الأتراك بالأمر دون الخلفاء .

— ٥ —

ثم تأسست الدولة الزيدية التى اشتق اسمها من انتساب مؤسسها إلى الإمام « زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب » . أما مؤسسها فهو « الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين » الذى اعتنق المذهب الزيدى .

وكان الإمام زيد من أعلام أهل البيت رأى فى عهد الخلافة الأموية أنه أحق بالخلافة منهم، واضطهده الخليفة « هشام بن عبد الملك » واتهمه بتبديد وديعة « لخالد بن عبد الله » القسرى أمير الكوفه السابق . وأمر بأخذه إلى الكوفه ليحقق معه أميرها « يوسف بن عمر الثقفى » ، وثبتت براءته وطلب إليه الرحيل عن العراق .

ولما علم أهل الكوفة بوجوده بينهم توافدوا عليه وحرضوه على الخروج على بنى أمية وأكدوا له أنهم ناصروه ومؤيدوه، واجتمع لديه من المحاربين حوالى أربعين ألفا وعدوه بالوقوف إلى جانبه . على أن أقارب زيد وأصحابه المقربين نصحوه بعدم الاعتماد على أهل الكوفة لغدرهم وعدم وفائهم ، ولكنه لم يقتنع بما ساقوه إليه من أمثلة وسوابق تاريخية ، وأعلن الثورة على الأمويين فى عام ٧٤٠ م ودارت عليه الدائرة ولم يثبت معه فى القتال إلا نفر قليل من المقربين إليه ، ولقى مصرعه فى الكوفة واحتزت رأسه وأرسلت إلى « هشام بن عبد الملك » .

وهكذا فشلت دعوة زيد ولكن ذكرى استشهاده لم تمت فى نفوس أتباعه ومريديه ، وظهر المذهب الزيدى وكثر أتباعه ،فقد كان أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وأقربها إلى مذهب السنة ، إذ لم يكن يبالغ فى تقديس « علىّ بن أبى طالب » ، ولم يتبرأ من أبى بكر وعمر ، بل إن زيدا نفسه كان يرى أن إسناد الخلافة بعد وفاة النبى إلى أبى بكر أمر لا مفر منه لأن مصلحة المسلمين كانت تقتضى ذلك ، وقد رفض شيعة الكوفه مجاراته فى هذا الرأى ورفضوا كثيرا من مبادئه ولذلك أطلق عليهم اسم (الرافضة) .

على أن المذهب الزيدى قد إعتنقه الكثيرون من آل البيت ، وعدد كبير من المسلمين فى فارس ،وفى الكوفة بالعراق ، وفى الحجاز . ولكن اليمن كانت أكبر مركز سياسى للزيدية ؛ حيث تأسست هناك دولة زيدية على يد الإمام « الهادى إلى الحق » ، وهو حفيد « على قاسم الرسّى » الذى ينتهى نسبه إلى الإمام علىّ والسيدة فاطمة الزهراء .

قامت الدولة الزيدية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وساعد على قيامها سوء الأحوال فى الدولة العباسية ، مما أدى إلى تأسيس دويلات إسلامية استقل بها ولاتها . وكانت الفرصة مواتية فى اليمن أكثر من غيرها نظراً لبعد تلك البلاد عن مقر الخلافة فى بغداد وكثرة الطامعين من أهل اليمن فى الحكم والاستقلال أمثال « بنى زياد » فى « زبيد » « وآل يَعفُر » فى « صنعاء » ، « وآل الضحاك » فى بلاد « حاشد » وغيرهم وغيرهم .

وقد جاء « الهادى إلى الحق » إلى اليمن عام ٨٩٣ م بناء على دعوة تلقاها من زعماء منطقة « صعدة » الواقعة فى الجبال الشمالية وكانت أشد المناطق اضطرابا وأكثرها انفصالا عن الخلافة العباسية وولاتها فى اليمن ، وأغلب سكانها

يوقرون آل البيت فى الحجاز ، ولذلك وقع اختيارهم على الهادى إلى الحق يحيى ابن الحسين أحد أحفاد الحسين بن علىّ ، وكان مقيماً فى جبل « الرَّس » بالقرب من المدينة ، اعتقادا منهم بأنه خير من يصلح ليكون إماما وحاكماً .

وقد لبى الهادى إلى الحق دعوة زعماء « خولان » وذهب إلى اليمن ليؤلف حكومة شيعية ، إلا أن القوم لم يعجبهم صرامته فى العدل وأخذه الناس بالشدة لكى يتعودوا الطاعة والخضوع للنظام ومراعاة مبادىء الدين الحنيف ، ولما لم يكن لديه من وسائل القوة ما يحمى حكمه فى مجتمع منحل لا يرعى تعاليم القرآن ، رأى أن يعود إلى الحجاز لأنه لم ينجح فى أداء مهمته كحاكم إسلامى يحرص على أن يقيم الحد وينفذ شريعة الإسلام .

وعندما غادر اليمن ، استفحلت الفتن وكثرت الخلافات واضطربت الأحوال وظهر لزعماء (خولان) فى صعده أن البلاد قد فقدت بذهابه الأمل فى الإصلاح فعادوا يلحون عليه فى العودة متعهدين له بالرضوخ لأحكامه وبمده بكل وسائل القوة التنفيذية حتى يستطيع تحقيق كل ما يسعى إليه من وجوه الإصلاح . ولما أحس الإخلاص فى نياتهم هذه المرة عاد إلى اليمن عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م ، وهناك فى « صعده » استقر به المقام ، وأسس الدولة الزيدية التى ظلت تحكم فى اليمن إلى أن قامت الثورة اليمنية الأخيرة وانقضى حكم الأئمة الزيديين بقيام الجمهورية .

وقد بدأ حكم الدولة الزيدية مستقلا عن الخلافة العباسية التى كانت فى طريقها إلى الانحلال ، واتخذت مذهبا يختلف عن المذهب السنى . وكان على الهادى أن يعمل على تثبيت دعائم الحكم فى الدولة الجديدة بالقضاء على الفتن التى عاصرها فى المدة الأولى من حكمه ، وتأمين الناس على حياتهم وممتلكاتهم ، وإصلاح ذات

البين بين رؤساء القبائل وزعمائها . وعندما تم له ذلك أخذ يستعد للتوسع وإقناع اليمنيين فى منطقة « صعده » أنهم أصحاب رسالة إصلاحيـة دينية وجب عليهم الجهـاد فى سبيلها ونشرها فى جميع أنحاء اليمن .

كان أول مشروعاته أن يضم بلاد نجران التى تقع بالقرب من حدود اليمن الشمالية وضم منطقة « رَطَ » التى تمتاز بخصوبة أرضها ومناعة حصونها، ونجح فعلا فى ضمها وإرساء قواعد الحكم الزيدى بها وبذلك أصبحت منطقة شمال اليمن كلها تحت حكمه. وبعد ذلك وجه قواته جنوبا إلى بلاد « خَيْوان » « والحضَن » « وأثافِت » حيث قابله أهلها الهمذانيون بالرضى والترحاب . ولم ينقض عامان حتى أصبحت « صعده » ومايحيط بها من شمال وجنوب تـكوِّن الدولة الزيدية الأولى . ثم حانت الفرص للتقدم جنوبا نحو صنعاء فاتجه إليها عام ٢٨٨ هـ ـ ٩٠١ م فدخلها وعين عليها والياً من قبله ، ثم استولى على المخاليف المجاورة ودخل « شِبام » و « ذِمار » ، ولـكن حكمه لم يستقر فى تلك المنطقة ودارت بينه وبين الأمراء اليمنيين من آل يَعفُرُ ، وآل طريف ، ووالى الخلافة العباسية ، معارك عديدة أُجبر بعدها على الجلاء عن صنعاء والاكتفاء بدولته الشمالية ، فاستقر من جديد فى « صعده » إلى أن مات فى عام ٢٩٨ هـ = ٩١١ م .

وبعد موته تتابع على الحـكم الزيدى أئمة من نسل الهادى إلى الحق أو من نسل غيره من أحفاد الحسن أو الحسين .

تلك هى نشأة الدولة الزيدية التى استطاعت فى النهاية أن تحكم اليمن بعد أن عاصرتها فى فترات متقطعة دول أخرى قامت فى مختلف جهات اليمن ثم عفى عليها الزمن ، بعضها عادى الزيديين وحاربهم ، وهادنهم البعض الآخر . على أن الزيدية لم تـكن هى عقيدة اليمن كله ، بل كان هناك الشافعيون وغيرهم .

— ٦ —

وكان أهم هذه الدول ، دولة بنى زياد فى زبيد وانتهى عهدها عام ٣٩١ هـ = ١٠٠٠م ودولة بنى يعفر فى «شبام» وانتهت عام ٣٩٣ = ١٠٠٢ م [1] ، ودولة بنى زريع الهمذانيين ، وقد قامت فى عدن من عام ٤٦٧ = ٥٦٩ هـ (١٠٧٤ - ١١٧٣م) والدولة الصليحية التى أقامها « محمد الصليحى » وسلالته وقد قامت فى صنعاء مابين عامى ٤٣٩ - ٥٣٢ هـ (١٠٤٧ - ١١٣٧ م وقد كانت الدولة الصليحية تدين بالولاء للخلفاء الفاطميين فى مصر . بينما عاصرتها الدولة النجاحيه فى «زبيد» ، وهى الدولة التى كانت خاضعة لنفوذ الدولة العباسية .

أما الدولة النجاحية فهى التى خلفت الدولة الزيادية فى زبيد وقد أسسها المؤيد نجاح عام ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) وكان عبدا حبشيا من موالى آل زياد واستطاع بقدرته وكفايته أن يتولى ملك تهامة اليمن وانتهى حكم تلك الدولة عام ٥٥٤ هـ (١١٦٠م) ، وكان آخر ملوكها «عبد النبى بن مهدى» طموحا متطلعا إلى توحيد اليمن كله تحت حكمه وقطع الصلة بينه وبين الدولة العباسية .

— ٧ —

ولما أمر عبد النبى بعدم الدعاء فى الخطبة للعباسيين رأى « صلاح الدين الأيوبى » أن يستأذن « نور الدين محمود » فى فتح اليمن فأذن له ، وعندئذ جهز أخاه الأكبر « توران شاه » وزوده بجيش من القاهرة . واستطاع توران شاه أن يدخل زبيد فاتحا ويقتل عبد النبى بن مهدى الذى كان آخر ملك من ملوك الدولة النجاحية ، وأخذ توران شاه يتوسع فى فتوحاته حتى استولت قواته على منطقة عدن وقضت

---

(١) وهم الذين حاربوا الهادى إلى الحق فى صنعاء .

على ملك بنى زريع فى الجنوب . ودانت اليمن كلها للحكم الأيوبى بعد أن قضى على ما بها من دويلات شيعية وأعلن مذهب السنة ، وتوالى على حكمها ولاة أيوبيون كان آخرهم الملك « السعود صلاح الدين يوسف » (ابن الملك الكامل) الذى توفى عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) .

وقد عاصر الحكم الأيوبى فى اليمن عدة أئمة من الزيدية حاول بعضهم النهوض لاسترجاع ماضاع منهم من أرض وسلطان . ولكن لم تنجح تلك المحاولات واستكانوا فى ذلك العهد لقدرهم .

دولة بنى رسول ١٢٢٩ — ١٤٥٤ :

ولما انشغل الأيوبيون بما كان بينهم من خلافات وفتن ، تمكن نائبهم فى اليمن « عمر بن على آل رسول » من الاستقلال بحكم اليمن . حيث أسس الدولة الرسولية المستقلة ، متخذا « زبيد » عاصمة له . وشمل ملكه صنعاء وكوكبان وحضر موت ، ورأى من مصلحته أن يتقرب إلى أسرة الإمام الزيدى فعقد معه صلحا . وفى عام ١٢٤٩ دبر أولاد أخيه مؤامرة لقتله . ونجحت المؤامرة .

وتولى الحكم بعده ابنه « يوسف » الذى أطلق على نفسه اسم « الملك المظفر » . وفى عهده امتد ملكه إلى « لحج » و « ظفار » و « شبام » . ووقع الخلاف بينه وبين الإمام الزيدى « أحمد بن الحسين » ، وانتهى الصراع باستيلاء « يوسف بن عمر رسول » على « صعده » فى عام ١٢٥٤ ، ثم قتل الإمام فى عام ١٢٥٨ .

الرسوليون والمماليك :

ولما مات يوسف ثار النزاع بين أبنائه الأربعة على الحكم ، وظل الصراع دائرا بينهم حتى انتهى إلى ابنه داوود (١٢٩٧) الذى كان حكمه بداية للخلاف الذى ثار بين الدولة الرسولية فى اليمن ، ودولة المماليك فى مصر . فقد كان من عادة حكام اليمن أن يرسلوا إلى السلطان المملوكى هدية نقدية ، وكان الملك

المظفر يوسف بن عمر آل رسول مواظبا على إرسالها سنويا . وكذلك أرسلها ابنه عمر الذى حكم قبل داوود . أما داوود فقد صمم على تحدى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، رغم التهديد والوعيد الذى تلقاه من السلطان والخليفة العباسى الذى كان مقيما بالقاهرة إذ ذاك .

وقد حكم داوود اليمن حتى عام ١٣٢١ وابنه ، «على» حتى عام ١٣٦٣ ، ازداد أثناءها التوتر فى العلاقات بين آل رسول وحكومة المماليك البحرية فى مصر ، حتى أقدم السلطان الناصر حسن بن محمد (١٣٤٧ ـ ١٣٥١) على إرسال حملة إلى اليمن تمكنت من هزيمة القوات الرسولية وأسر على بن رسول وحملته إلى مصر ثم أفرج عنه بعد عام واحد عاد بعدها إلى اليمن .

ولم تلبث الدولة الرسولية أن تفككت وضعف شأنها إلى أن انتقل الحكم فى اليمن إلى دولة بنى طاهر فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى .

دولة بنى طاهر (١٤٤٦ ـ ١٥١٧) :

وقد انتقل الحكم إلى تلك الدولة على يد «على بن طاهر» ، و«عامر بن طاهر» ، اللذين كانا يحكمان عدن باسم الدولة الرسولية ، ثم استقل بنو طاهر بحكمها فى عام ١٤٤٦ ؛ وأخذوا بعد ذلك فى التوسع شمالا فاحتلوا « زبيد » عام ١٤٥٤ . وحاول الإمام الزيدى الناصر بن محمد (١٤٣٧ ـ ١٤٦٢) أن يمنع امتداد الدولة الطاهرية فى اليمن إلا أن قواته اندحرت ودخلت القوات الطاهرية عاصمة «ذمار» وأسر الإمام ومات فى سجنه عام ١٤٦٢ .

ودخلت القوات الطاهرية صنعاء ، واعترف الإمام الزيدى الجديد محمد ابن الناصر (١٤٦٢ ـ ١٥٠٣) بالأمر الواقع ولكنه كان يستعد لطردهم من صنعاء ، ولما قوى ساعده أعلن عليهم الحرب وتمكن من إجلائهم عنها بعد قتال عنيف قتل أثناءه « عامر بن طاهر » سنة ١٤٦٦ .

عامر بن عبد الوهاب (١٤٨٩ ـ ١٥١٧)

على أن الدولة الطاهرية ظلت تحكم « تعز » و « زُبيْد » و « عدن » ، بينما ظلت الإمامة الزيدية سيطرة على صنعاء إلى أن ولى الحكم الطاهرى « عامر بن عبد الوهاب » (١٤٨٩ — ١٥١٧ م) آخر سلاطين الدولة وأقواهم شخصية وأشدهم بأسا ؛ حكم الدولة ثمانية وعشرين عاما قضاها فى تدعيم ملكه وتثبيت سلطان الدولة فى اليمن .

فتح صنعاء ١٥٠٥ م

ولم يبق أمامه لكى يمد نفوذها نحو الشمال إلا أن يستعيد « صنعاء » عاصمة البلاد وحصنها المنيع ، وقد اتجه نحوها بقواته عام ١٥٠٥ [1] وحاصرها ستة شهور حتى استسلمت،وقبض على الإمام الزيدى « محمد بن الوشلى » (١٤٧٦ — ١٥٠٥) ، وتداعى نفوذ الإمامة الزيدية فى عهد « عامر بن عبد الوهاب » ، إلا أنها لم تندثر إذ وليها بعد ذلك بعامين الإمام المتوكل « يحيى شرف الدين » (١٥٠٧ — ١٥٥٨) ، وهو الإمام الذى عاصر الفتح العثمانى لليمن .

---

(١) ذكر الرحالة الايطالى بارتيما الذى زار اليمن عام ١٥٠٥ أن السلطان عامر بن عبد الوهاب كان لديه جيش مؤلف من ثمانين ألف ، وكانت أغلبية جيشه من الأحباش الذين دربوا على القتال منذ سن الثامنة مسلحين برماح يحملونها باليد،وسيوف قصيرة عريضة.

الفصل الثانى

العثمانيون والمماليك فى اليمن

١٥١٧ — ١٥٣٨

البرتغاليون والمماليك :

أخذ الجنوب العربى فى أوائل القرن السادس عشر يصبح طرفا فى النزاع بين المماليك فى مصر ، وحركة الاستعمار الأوربى التى كانت تتمثل إذ ذاك فى دولة البرتغال ، فقد كانت تلك الدولة حانقة على احتكار مصر المملوكية لطرق التجارة بين الشرق والغرب عندما كانت تجارة الهند تتجمع فى عدن ثم تنقل بواسطة العرب والمصريين إلى ميناء عيذاب ، ومنها تحمل المتاجر على ظهور الجمال إلى قوص ، ثم تحمل فى النيل إلى ثغور مصر على البحر الأبيض المتوسط ، وتحتكر دولة البندقية إذ ذاك حق نقل تلك البضائع الهندية والشرقية إلى أسواق أوربا .

ولما نجح البرتغاليون أثناء حركة الاستكشاف فى الوصول إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح رأوا أن يحولوا تجارة الهند عبر الطريق الذى يسيطرون عليه ، وكانت وسيلتهم فى ذلك العمل على الاستيلاء على منافذ البحار الهندية والعربية .

وجاءت حركة المغامرات البرتغالية إلى سواحل الجنوب العربى فى الوقت الذى كانت القوى الداخلية تتصارع فى اليمن بين السلطان الطاهرى « عامر ابن عبد الوهاب » والأئمة الزيدية الذين تعاقبوا على الإمامة فى أيامه . وكان

فاسكو دا جاما قد وصل إلى السواحل الجنوبية عام ١٤٩٨ ونزلت القوات البرتغالية جزيرة « سقطره » عام ١٥٠٧ (١) حيث أقام البرتغاليون حصنا منيعا ، وبذلك ضيقوا الخناق على مخرج البحر الأحمر ، وفى عام ١٥١٣ كانت حملة البرتغاليين بقيادة « ألبوكيرك » تحاول تدعيم سلطانهم بإقامة قواعد لهم فى الطرق البحرية الموصلة إلى الهند ، لذلك أنشأ البوكيرك نحو خمسين قاعدة تشرف على مالا يقل عن خمسة عشر ألف ميل من الشواطىء ، واتخذ « جوا » بالهند قاعدة رئيسية للامبراطورية البرتغالية فى الشرق ، ولما تبين له أن سقطره غير كافية لإغلاق طريق البحر الأحمر فكر فى احتلال عدن عام ١٥١٣ ، ولكن وجد البرتغاليون هناك مقاومة شديدة من الأهالى الذين ساعدتهم مناعة عدن الطبيعية وفشلت الحملة فشلا ذريعا .

وكان حاكم عدن العربى الأمير مرجان قد استنجد بالسلطان الطاهرى « عامر بن عبد الوهاب » ، إلا أن الأخير كان منشغلا بحروبه الداخلية التى كان يشنها على الإمام الزيدى بقصد تدعيم سلطانه على صنعاء ، والتوسع منها نحو الشمال ، ولذلك اعتمد حاكم عدن على اشتراك الأهالى فى مقاومة الحملة البرتغالية حتى ارتدت يائسة من احتلال عدن ، ثم حاول الأسطول البرتغالى أن يتقدم نحو البحر الأحمر إلا أنه لم يستطع مواصلة السير ، ولم ينجح إلا فى الوصول إلى جزيرة كران (إبريل ١٥١٣) فاضطر إلى العودة نظرا لما كسة الرياح ، وفى أثناء

---

(١) جاء فى كتاب البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، المؤرخ العربى قطب الدين النهروالى ، وفى كتاب « ارتياد الجزيرة العربية » للمؤرخ الانجليزى هوجارث : أن فاسكو داجاما استعان فى تحقيق مهمته الاستكشافية ببحار عربى هو أحمد بن ماجد — ولما قام البوكيرك بحملته استعان بالخرائط التى وضعها هذا البحار اليمنى . ولابن ماجد مؤلفات كثيرة فى علم البحار أهمها كتاب الفوايد فى أصول علم البحر والقواعد .

توقفه فى كمران أخذ البوكيرك يجمع المعلومات عن الأقاليم الواقعة فى مدخل البحر الأحمر ، وزار جزيرة بريم ليكتشف مدى نفعها الاستراتيجى لمشروعاته ثم عاد إلى « ديو » (Diu) .

وعندما تجولت سفن البرتغاليين فى البحر الأحمر جنوبا ، لم يقع فى حسبانهم أن يلقوا أية مقاومة توجه إليهم من داخل اليمن ، ولم يكن « عامر بن عبدالوهاب » يمثل فى أذهانهم أى خطر على مشروعاتهم على السواحل ، ولكن عداءهم كان موجها إلى دولة المماليك المصرية ، وكانوا يعتقدون أن المماليك لن يتوانوا عن الزحف بأساطيلهم لكبح جماح الاستعمار البرتغالى ، وصده عن التحكم فى الطرق التجارية ، بل وكان البرتغاليون يتوقعون الاصطدام بالقوة المملوكية بعيدا عن البحار العربية أى فى الهند نفسها لعلمهم بأن بعض الحكام المسلمين كانوا على صلة دائمة بالمماليك — كأكبر قوة إسلامية فى ذلك الحين يستنجدون بالسلطان الغورى ضد الخطر البرتغالى على أملاكهم بالهند .

حملة السلطان الغورى :

وفى أغسطس ١٥١٣ ، عاد البوكيرك إلى البحار الهندية دون أن يحقق آماله فى احتلال عدن واقتحام البحر الأحمر للاستيلاء على جدة وتأسيس قواعد برتغالية فى البحر الأحمر ولكنه لم يكف عن محاولاته حتى عام ١٥١٥ ، وهو العام الذى بدأ فيه السلطان « قانصوه الغورى » يجهز حملة لوضع حد للعدوان البرتغالى فى الجنوب العربى ، ومنعهم من التحكم فى الطرق التجارية الموصلة إلى الهند والشرق الأقصى ، حتى لا تفقد الدولة المملوكية فى مصر مواردها الهائلة من التجارة الشرقية ، ولاسيما أن الوجود البرتغالى فى تلك المناطق ترتب عليه نقص كبير فى الاقتصاد المصرى ، وضعف شديد فى السيادة المملوكية على تلك الجهات .

وقد استغرق إعداد الأسطول المصرى فى السويس سنوات عدة بسبب سوء الحالة الاقتصادية ، وضعف الإمكانيات . ووقع اختيار السلطان الغورى على القائد البحرى « حسين الكردى » نائب جدة ليقود الأسطول المصرى نحو الجنوب لتحقيق هدفين : أولهما تعقب البرتغاليين وإنزال الهزيمة بهم تمهيدا لطردهم من البحار الجنوبية ، وثانيهما تدعيم السيـــــادة المصرية المملوكية فى البحر الأحمر ومنافذه .

تحرك الأسطول إلى ميناء جدة ، حيث تجمعت هناك حوالى عشرون سفينة محملة بستة آلاف جندى وأبحرت جنوبا حتى وصلت إلى جزيرة « كمران » فاحتلتها بعد أن اخلاها البرتغاليون وفيما كان « حسين الكردى » منشغلا باحتلال الجزيرة وصلته رسالة من الإمام الزيدى « المتوكل يحيى شرف الدين » يرحب به وبقواته فى الجنوب العربى ، ويطلب إليه تخليص اليمن من بطش الدولة الطاهرية التى يرأسها السلطان عامر بن عبد الوهاب ، ولما كان من أهداف الحملة تثبيت السيادة المصرية المملوكية فى تلك الجهات فقد أمر بإنزال فرق من الجيش إلى البر ونجحت فى الاستيلاء على « زبيد » عام ١٥١٦ بعد أن اشتبكت مع قوات السلطان عامر ابن عبد الوهاب التى قاومت احتلال المدينة فى معارك عنيفة ، انتهت بتثبيت أقدام القوات المملوكية فى تلك المنطقة . واحتلتها حامية مملوكية كان على رأسها « برسباى » .

وحاول حسين الكردى بعد ذلك الاستيلاء على عدن ، فأبحر بأسطوله جنوبا حتى وصلها فى أغسطس عام ١٥١٦ إلا أنه قوبل بمقاومة شديدة من الأهالى ولم يستطع جنوده البقاء طويلا فانسحبوا إلى سفنهم وعاد الأسطول إلى داخل البحر الأحمر متجها شمالا نحو « جدة » حيث استقر الرأى على اتخاذها قاعدة للأسطول حتى ينجلى الموقف فيقرر القائد ما يراه .

وبينما كانت القوات المملوكية تتخذ مواقعها فى جدة وصلت الأنباء عن نجاح الأتراك العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول فى غزو مصر ، وانتهاء دولة المماليك ، ودخول أشراف الحجاز فى طاعة السلطان العثمانى . ووقع أمير البحر « حسين الكردى » فى حيرة من أمره ، وما لبث ان أوقع به أشراف مكة فقتلوه وألقوا بجثته فى مياه جده ، انتقاما منه لغطرسته وعدم احترامه لمركزهم الدينى .

وتحرج موقف الحملة المملوكية فى اليمن وكان على رؤسائها أن يحددوا موقفهم تجاه الوضع الجديد فى مصر . وكان الحل الوحيد أمامهم هو الاعتراف بالأمر الواقع وإعلان ولائهم للسلطان سليم الأول . وكان لنبأ تغيير الوضع فى مصر صدى أليم فى نفوسهم فى الوقت الذى كانوا فيه قد تخلصوا من أكبر عدو لهم فى اليمن وهو السلطان عامر بن عبد الوهاب عندما حاول طردهم من زبيد . فقد انتصروا عليه ثم هاجموا صنعاء ، ولما حاول بن عبد الوهاب معاودة القتال واللحاق بهم فى صنعاء اشتبكوا معه وقتل أثناء المعركة فى مايو ١٥١٧ . وكان الموقف السياسى والعسكرى فى مصلحة المماليك إلا أن الفتح العثمانى لمصر ، والقضاء على الحكم المملوكى أوقعهم فى حيرة وارتباك ، ولكن الأمير اسكندر قائد الحملة حسم الأمر بإعلان خضوع القوات المملوكية باليمن للسلطان العثمانى وأرسل إليه هدية ثمينة كرمز للتبعية والولاء ولم يسع السلطان عندئذ إلا تثبيته كأول حاكم عثمانى يحكم اليمن باسم السلطان سليم الأول .

* * *

على أن السلطان سليم لم يكن فى الواقع مقتنعا بولاء المماليك الذين ذهبوا إلى اليمن بأمر السلطان الغورى ، ولم يكن إعلان ولائهم كافيا للاطمئنان على صدق نياتهم . وفى الوقت نفسه كان سليم الأول يقدر تمام التقدير وضع اليمن الاستراتيجى بالنسبة للنزاع القائم بين الدولة العثمانية والبرتغاليين الذين يصرون

على بسط نفوذهم فى الشرق واحتكار تجارته ، وكان طبيعيا ـ بعد أن أصبحت مصر فى حوزة العثمانيين ـ أن يحافظ على الطريق القديم لتجارة الهند والذى أصبح يمر فى أملاك الإمبراطورية العثمانية .

لهذا ، أصبح من أهداف الدولة أن تسيطر على الجنوب العربى ، ولم يكن الأوان قد آن فى عهد السلطان سليم لإرسال حملة لفتح اليمن ، لأنه كان مشغولا بالحروب فى مناطق أخرى ، فى أوروبا وفى غيرها ، ومع ذلك فلم يغب عن ذهن السلطان سليم مراقبة الحـــوادث فى البحر الأحمر . فقد عين من قبله «حسين الرومى » أحد ضباط حملته على مصر ليكون واليا عثمانيا مقره « جده »، وكان من مهامه مراقبة البرتغاليين الطامعين فى البحر الأحمر . وقد حدثت فعلا محاولة من جانب البرتغاليين لاقتحام البحر الاحمر والاستيلاء على جدة ،واستطاع حسين الرومى صدها والقضاء على ذلك المشروع البرتغالى . ولكن الهدف الأكبر للعثمانيين كان لا يزال موجها للاستيلاء على اليمن استيلاء كاملا .

القوى الثـــلاثة :

وكان على الدولة العثمانية إذ ذاك أن تقضى على القوى الثلاثة التى كانت تتصارع فى الجنوب العربى : وهى القوة الزيدية وعلى رأسها الإمام شرف الدين حيث كان نفوذه لا يزال قويا يسيطر على صنعاء وما حولها ، ثم قوة الأسرة الطاهرية التى كانت تسيطر على منطقة عدن ، وأخيرا قوة المماليك الذين وإن أعلنوا ولاءهم للسلطان وحاولوا الحكم فى ظل سيادة الدولة العثمانية إلا أن ارتياب السلطان فى صدق ولائهم جعله يصر على القضاء على فلولهم هناك .

ولم تسنح الفرصة للسلطان سليم بتحقيق فتح اليمن كله ،فقد توفى عام ١٥٢٠ بعد أن قامت القوات العثمانية بمحاولات عسكرية فى اليمن لم تنته بإتمام السيطرة الكاملة على اليمن .

وتولى العرش السلطان سليمان القانونى (١٥٢٩ ـ ١٥٦٦) ، فتم فى عهده الفتح العثمانى لليمن . وكان البرتغاليون عاملا هاما شجع على إتمام ذلك الفتح.

لقد كان السلطان سليمان القانونى محط أنظار أمراء الهند الذين تعرضوا لهجوم البرتغاليين وعدوانهم على السواحل الهندية . ففى عام ١٥٣٧ تمكنوا من الاستيلاء على ميناء « ديون » فأرسل « بهادور شاه » سلطان كجرات ـ وهى إحدى الولايات الإسلامية على الساحل الغربى للهند يستنجد بالسلطان سليمان ، ويستثير حميته الدينية لإنقاذ إخوانه المسلمين ، ثم علم السلطان بعد ذلك أن البرتغاليين قتلوا بهادور شاه عندما علموا بأمر اتصاله بالسلطان العثمانى ، وفى الوقت نفسه علم بأن البرتغاليين على اتصال بأعدائه الفرس ، يؤازرونهم ويمدونهم بالمعونات الحربية ، ويرسلون إليهم الخبراء لتدريبهم على صناعة الأسلحة الحديثة وطرق استعمالها . كل ذلك أوغر صدر السلطان على البرتغاليين وجعله يتعجل الانتقام منهم ، ويعمل على أن يكون البحر الأحمر بحيرة عثمانية ، وبالتالى يحاول بسط السيطرة العثمانية على سواحل الهند . كما استطاع بسطها فى البحر الأبيض المتوسط على يد قائده الكبير خير الدين بربروس .

ووقع اختيار السلطان على « سليمان باشا الخادم » والى مصر ليقوم بتحقيق هذا الهدف الكبير ، وأمره بالإسراع فى إتمام إعداد الأسطول الذى سبق أن أمره ببنائه فى السويس منذ عام ١٥٣١ .

الفصل الثالث

الفتح العثمانى لليمن

لم يكن سليمان باشا الخادم – الذى وصله الأمر بالقيام بالحملة – فى مستوى قواد الدولة البحريين أمثال خير الدين بربروس ، فقد كان طاعنا فى السن ثقيل الحركة ، ضعيف الخبرة فى القيادة البحرية .

ومهما يكن الأمر من شىء ، فقد عكف سليمان باشا الخادم على إعداد الحملة التى أمر السلطان سليمان القانونى بتوجيهها لمحاربة البرتغاليين فى بحار الهند ، ولكن كان عليه أيضا إنهاء مهمة رئيسية هى تدعيم السيطرة العثمانية على سواحل البحر الأحمر والاتصال بالحكام العرب على طول الساحل اليمنى وخصوصا فى عدن والشحر للدخول فى طاعة السلطان العثمانى . ثم العمل على إنهاء الحكم المملوكى بالقضاء على فلول المماليك الذين كانوا يحكمون فى «زبيد» . وكان العثمانيون بعد فتح مصر قد ثبتوا « حسين الرومى » أحد زعماء المماليك حاكما من قبلهم هناك إلى أن تحين الفرصة لتعيين حاكم عثمانى .

غادرت حملة سليمان باشا الخادم ميناء السويس فى ٢٨ يونيه ١٥٣٨ ، وبعد أن رسى الأسطول قليلا فى ميناء جده واصل السير إلى جزيرة كمران ، ثم خرجت من البحر الأحمر ووصلت عدن فى ٣ أغسطس عام ١٥٣٨ ، وكان يحكمها إذ ذاك « عامر ابن داوود الطاهرى » الذى سلم المدينة للعثمانيين معلنا ولاءه للسلطان ، محاولا استرضاء سليمان باشا الخادم حتى يثبته فى الحكم ، إلا أن الأخير غدر به وقتله ، وعين « بهرام » أحد الضباط الأتراك حاكما على عدن ، وترك معه

حامية عثمانية . ثم واصل السير نحو الهند لمواجهة البرتغاليين فى ميناء « ديو » حيث وصلت تجاهها فى أوائل سبتمبر ١٥٣٨ وبدأت فى إحكام الحصار حولها وبعد شهرين — أى فى ٥ نوفمبر — علم سليمان الخادم من خطاب برتغالى وقع فى يده موجه من الحاكم العام فى « جوا » إلى قائد حصن « ديو » يأمره بالصمود فى وجه الحصار حتى يصل الأسطول البرتغالى الكبير الذى كان فى طريقه لنجدته عند ذلك أسقط فى يد سليمان وأصدر قراره بفك الحصار والانسحاب إلى الشواطىء العربية . ومع أن الحاكم الهندى فى « ديو » أكد له أن القلعة البرتغالية أصبحت على وشك التسليم إلا أن سليمان باشا الخادم لم يكن على مستوى المسئولية التى كلف بها وصمم على المضى فى الانسحاب .

فشل الحملة :

عاد سليمان باشا بأسطوله بجر أذيال الفشل مدعيا بأن الهنود فى البر لم يقدموا للحملة ما كان يؤمله من معونة ومؤونة . ولكنه كان يمنى نفسه بالانتصار فى مهمته الثانية وهى إقامة دعائم الحكم العثمانى فى اليمن ، بعد التخلص من القوى التى تتصارع على الملك هناك .

وصل الأسطول العثمانى إلى ميناء الشحر ، وهناك أقر سلطانها « بدر الطويرق » بالسيادة العثمانية وقبل أن يدفع جزية سنوية ، ثم واصل سليمان الخادم التقدم نحو عدن ثم « مخا » وفى الميناء الأخير أنزل قوات تتقدم منها إلى زبيد مقر الحكام المماليك بقصد القضاء نهائيا على فلول المماليك الباقين باليمن ، وعلى الرغم من أن والى زبيد الملوكى قد أعلن من قبل أن يحكم فى اليمن باسم السلطان العثمانى لا باسم المماليك ، فإن سليمان باشا كان مصمما على التخلص من كل أثر من آثار الحكم الملوكى فى البلاد ، ولجأ إلى وسيلة الغدر التى استخدمها من قبل مع عامر بن داوود الطاهرى ،

فأرسل إليه يؤمنه فى ولايته ويستدعيه لمقابلته فى مخا ، وبعد تردد قبل الأمير المملوكى « الناخوده أحمد » أن يقبل دعوته ، وما أن وصل إلى مخا حتى أمر سليمان باشا بقتله ، وأمر بتعيين أحد الضباط العثمانيين حاكما على زبيد وعلى المنطقة التى كان يحكمها المماليك فى تهامة ، ومنذ بداية عام ١٥٣٩ ، لم يبق أمام العثمانيين بعد القضاء على فلول الأسرة الطاهرية فى عدن ، وفلول المماليك فى منطقة زبيد — إلا مواجهة أكبر قوة ضاربة فى اليمن فى ذلك الحين ، وهى قوة الزيديين المتمثلة فى الإمام شرف الدين .

كان الإمام الزيدى على علم بوسائل الغدر التى يتبعها سليمان الخادم ، فعزم على المقاومة وعـــــدم الإذعان للطرق التى أراد بها سليمان أن يستدرجه لمقابلته ومفاوضته ، ولذلك لم تنجح المحاولات التى أراد بها الأخير الاستيلاء على « تعز » وتوابعها (مخالفيها) ومن ثم يواصل السير جنوبا لاستكمال الفتح ، وربط المنطقة الجنوبية التى كانت عدن قاعدة لها بالمنطقة الشمالية التى بدأت من زبيد . وكان موقف الصمود الذى اتبعه الإمام شرف الدين المطهر سبيلا إلى عرقلة تحقيق الخطة العثمانية على يد سليمان الخادم ، ولاقت الحملة فى جبال اليمن عنتا شديدا وأهوالا قاسية ولم تستطع التقدم فى المناطق التى يحكمها الزيديون ، وكان نجاحها قاصرا على السيطرة على زبيد ومنطقة تهامة فى الشمال ، والقضاء على الحكم الطاهرى فى عدن ونقله إلى أيدى العثمانيين ، وأخيرا إخضاع السواحل اليمنية من الشحر وعدن جنوبا إلى جيزان شمالا(١) .

---

(١) تم اخضاع ميناء جيزان للسيادة العثمانية أثناء عودة الأسطول العثمانى إلى جدة ، وقد كانت جيزان تابعة آنذاك لأشراف مكة . وقد عين سليمان باشا عليه حاكما عثمانيا وترك معه حامية تركية تتبع الوالى العثمانى فى زبيد .

وعادت حملة سليمان باشا الخادم إلى مصر ولم تحقق إلا جزءاً من المهام التي أوكلت إليها وبقى على الدولة العثمانية أن تعمل فى المستقبل على توحيد اليمن كله تحت سيطرتها بانتزاع المناطق الداخلية التى يسيطر عليها الإمام الزيدى .

لذلك لم يكف العثمانيون عن محاولاتهم لتحقيق هذا الهدف ، وشجعهم على ذلك نشوب الخلافات المحلية وانقسام الأهالى إلى زيديين وشافعيين ، وإسماعيليين(١) وقد امتدت الخلافات إلى الأسرة الزيدية نفسها وذلك عندما عين الإمام ابنه « على بن شرف الدين » وليا للعهد وبذلك حرم منها ابنه الأكبر « المطهر » الذى كان متصفا بالقسوة والبطش ، وتسبب بذلك فى خروج المطهر على أبيه ، وتوليه عرش الإمامة عام (١٥٥٨ — ١٥٧٢).

حملة ازدمر باشا ١٥٤٧ :

كل هذه الأحداث أقنعت العثمانيين بأن الطريق أصبح ممهدا لهم لإتمام فتح اليمن ، فكلفت الحكومة فى عام ١٥٤٧ « ازدمر باشا » أحد قواد حملة اليمن بالبدء فى مهاجمة الإمام المطهر بن شرف الدين وسارت القوات العثمانية فى اتجاه صنعاء ، فاستولت على تعز ، وذمار ، وواصلت السير نحو صنعاء واقتحمتها بعد أن فرت القوات الزيدية . وباستيلاء العثمانيين على صنعاء ، بدأ الحكم العثمانى يرسخ مؤقتاً فى الأقطار اليمنية كلها ، وعين السلطان سليمان ، قائده « ازدمر باشا » واليا على اليمن فى صيف عام ١٥٤٩ تقديراً لما بذله من بلاء حسن فى فتح صنعاء .

---

(١) كانت الطائفة الاسماعيلية تقيم بالقرب من صنعاء فى جبال حراز وفى نجران فى أقصى الشمال وكان زعيم الطائفة محمد بن إسماعيل على عداء دائم بالإمام شرف الدين ، ولكن الإمام هزم الاسماعيليه واضطر زعيمهم إلى الفرار حيث قدم الطاعة والولاء للعثمانيين .

مقاومة الإمام المطهر للحملة العثمانية :

وكان الوالى الجديد يدرك ما ينتظر الحكم العثمانى من مصاعب وكوارث على أيدى اليمنيين الذين لا يستسلمون بسهولة لحكم أجنبى ، فعقد عدة اتصالات مع الإمام المطهر — الذى اتخذ مقره فى « ثلاء » — والذى لم يكف عن مقاومة العثمانيين ومحاربتهم بقواته فى مسالك الجبال وممراتها الوعرة . وقد عرض الوالى على الإمام أن يترك له خراج البلاد التى يسيطر عليها فى نظير اعترافه بالسيادة العثمانية التى تتمثل فى الدعاء للسلطان العثمانى فى خطبة الجمعة . وقبل الإمام المطهر تلك الاتفاقية ولكنه كان يضمر فى نفسه الانتقام عندما تلوح الفرصة ويقوى ساعده من جديد .

واليان عثمانيان يحكمان اليمن :

وقد لاحت تلك الفرصة للإمام المطهر عندما انتهت ولاية ازدمر باشا ، ووفد على اليمن ولاة ضعفاء مدة حكم كل منهم كانت قصيرة ، يستغلها الوالى فى جمع الثروة واقتناء المال بأى سبيل . ومما زاد فى إضعاف الحكم العثمانى أن الدولة قسمت اليمن إلى ولايتين : تشتمل الولاية الأولى على المناطق الجبلية الشمالية وجعلت عاصمتها (صنعاء) ، وتشتمل الولاية الثانية على منطقة (تهامة) وجنوب الهضبة وجعلت عاصمتها (زبيد) ، وفى بعض الأحيان (تعز) . وبذلك أصبح فى اليمن واليان يتنازعان ويتنافسان على تقسيم القوات وتعيين الحدود بينهما ، وجمع الأموال . وفى عام ١٥٦٧ بدأ الإمام المطهر يجمع من حوله الأنصار ويستميل القبائل . ونجح نجاحا كبيرا فى هذا السبيل وأصبحت الجهة الزيدية بفضل مهارته السياسية وقوة شخصيته على استعداد للمعركة التى طال انتظارها . وعندئذ هاجم العثمانيين فى (صنعاء) وتمكن من دخولها منتصرا فى سبتمبر ١٥٦٧ وفر الوالى — رضوان

باشا ـ إلى « ذمار » ليجمع فلول جيشه لاسترجاع العاصمة ، ولكن ذهبت جهوده سدى ، بعد أن فقد معظم رجاله فى مسالك الجبال الوعرة ، وعاد العثمانيون إلى الاكتفاء بجمع فلول قواتهم فى « زبيد » ، وعاشوا داخل أسوارها تحت رحمة أى عدوان تشنه القوات الزيدية إلى أن شعرت الحكومة فى الآستانة بخطورة الموقف فقررت إرسال حملة كبرى إلى اليمن بقيادة سنان باشا والى مصر فى أوائل عام ١٥٦٩ .

حملة سنان باشا (١٥٦٩ — ١٥٧١) وسقوط صنعاء .

قامت حملة سنان باشا من مصر فى يناير عام ١٥٦٩ ، وعندما وصلت إلى ميناء ينبع أنزل معظم قواته على الساحل لتسلك طريق البر متجهة إلى الجنوب ، ووصلت القوات إلى منطقة عسير لتثبيت السيادة العثمانية هناك ، ثم أسرع سنان باشا بقواته جنوبا نحو (تعز) لينقذ القوات العثمانية التى كانت تحت رحمة القوات الزيدية ، وكان الزيديون يعسكرون فى قلعة منيعة تشرف على المدينة ، ولم تكد تظهر القوات العثمانية حتى أخلى الزيديون تلك القلعة وتحسن موقف العثمانيين . وفى الوقت الذى قرر فيه سنان باشا مهاجمة صنعاء ، فكر فى إرسال بعض قواته جنوبا للاستيلاء على عدن ، فذهبت قوة بحرية من ميناء « مخا » وقوة برية من « تعز » ولم يجد الجيش العثمانى صعوبة فى الاستيلاء عليها حيث سقطت بعد أيام قلائل من حصارها برا وبحرا ، وأخيرا تم فتح صنعاء بعد قتال مرير فى مناطق الجبال التى اجتازتها الحملة ، وخسر العثمانيون خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد قبل أن يدخلوا صنعاء فى يوليه سنه ١٥٦٩ .

على أن استيلاء سنان باشا على صنعاء لم يكن سوى بداية لمراحلة من أخطر مراحل الحرب ضد الإمام المطهر الذى فضل الانسحاب الهادئ من عاصمته

ليتخذ من قمم الجبال قواعد لقواته توجه منها الضربات إلى القوات العثمانية التى أصبحت هدفا لحرب العصابات كلما خرجت من مكمنها فى صنعاء . وأقام الإمام فى بلدة « ثلاء » الحصينة حيث كان يجتمع بمشايخ القبائل الموالية له لاستنفارهم ضد الحكم الأجنبى ، وقد ساعده على إقناعهم بالجهاد ما كان يحدث من مباذل وحماقات يرتكبها أفراد القوات العثمانية ضد الأهالى من نهب وسلب وهتك أعراض .

لذلك لم يفلح سنان باشا فى محاولاته التى بذلها للوصول إلى معقل الإمام ، وكانت كل قوة تحاول الخروج من صنعاء تلقى من المقاومة مايضطرها إلى التقهقر بغير نظام تاركة وراءها آلاف الضحايا من الجند العثمانيين .

وقد عجزت قوات سنان باشا مرتين عن التقدم شمالا نحو مدينة شبام أو حصن كوكبان ، وتبين له خطورة الموقف ، ولاسيما بعد أن تناقص عدد تلك القوات ، وعدم وصول الإمدادات التى طلبها من والى مصر ، ونضوب المال لدفع رواتب الجند ورشوة رؤساء القبائل ، واضطراره إلى الاعتماد على ابتزاز الأموال من الأهالى بالقسر والإجبار مما ساعد على ازدياد الشعور العدائى العام واشتداد المقاومة .

الصلح الثانى مع الإمام المطهر (١٥٥٠) :

ولما بلغ به اليأس مبلغه ، اضطر إلى قبول الصلح مع الإمام المطهر العام ١٥٧٠ . ولم يمانع الإمام فى الاعتراف بالسيادة العثمانية ، فتكون الخطبة والسكة باسم السلطان العثمانى فى نظير أن يحتفظ بالمنطقة التى يحكمها والتى تشتمل على ثلاء ، والظواهر ، وصعده ، وحجة وبعض المناطق الأخرى المجاورة ، كإقليم الشرف ، وعفار وحصن ذى مرمر . هذا بالإضافة إلى قبول الإمام وجود حامية رمزية صغيرة

لاتزيد على ثلاثين جنديا عثمانيا تقيم فى « صعده » كرمز للسيادة العثمانية على جميع أقاليم اليمن بما فى ذلك المنطقة التى يسيطر عليها الإمام .

ومنذ أن تم عقد الصلح مع الإمام المطهر عام ١٥٧٠ إلى أن اضطر الأتراك إلى الجلاء عن اليمن عام ١٦٣٥ ، مر الحكم العثمانى فى تجارب قاسية ، وأحداث خطيرة ، وقد تخلل الثلاثين عاما فترات من الهدوء قليلة ، كانت كل فترة منها تنذر بهبوب عاصفة من الاضطرابات والانتقاض على الحكم والمقاومة المسلحة ، وكانت أطول فترة ساد فيها الهدوء هى الفترة التى تلت عقد الصلح بين سنان باشا والإمام المطهر .

وفاة الإمام المطهر :

وعندما توفى الإمام المطهر فى عام ١٥٧٢ سارت الأمور فى اليمن فى الطريق الذى يخدم الحكم العثمانى ، إذ بوفاته تخلص العثمانيون من شخصية قوية لها أتباعها وأنصارها ومريدوها ، وترك الإمام من بعده أبناء عدة يتصارعون على الإمامة ، ثم انتهوا إلى تقسيم ملك أبيهم فيما بينهم ، وأخذ التنافس الداخلى بين الإخوة ينمو ويزداد ، حتى ساد بينهم الشقاق ، وطمع كل منهم فى نصيب أخيه ، ولجأ بعضهم إلى الاستعانة بالعثمانيين لينصره على إخوته ، وهكذا كان موت الإمام المطهر وبالا على الإمامة[1] ، وبداية لانهيار حكم أسرته وإعطاء الحكم العثمانى فرصة يستقر فيها ويهدأ .

---

(١) ظهرت شخصية جديدة ، الامام الحسن بن على بن داوود المؤيدى الذى أعلن نفسه إماما فى منطقة الأهنوم الجبلية واتخذ مقره فى صعده وانضم إليه عدد من رؤساء القبائل ، فقاومه أبناء المطهر وأنصار الزيدية ، وأخمد حركته الوالى العثمانى مراد باشا حينئذ .

وفى أثناء هذه الفترة ، وفقت الحكومة العثمانية إلى تعيين حاكم جديد على اليمن هو الوالى حسن باشا (١٥٨٠ ـ ١٦٠٥) ، وكان من أكفأ الولاة فى تولى شئون الحكم من الناحية السياسية والإدارية والحربية ، واستطاع بمهارته أن يستميل مشايخ القبائل ببذل المال ونفح الهدايا ، واهتم فى الوقت نفسه بإخماد أى حركة عصيان تحدث فى المناطق الجبلية الشمالية ، وكانت حملات التأديب هذه سبيلا إلى مد السيطرة العثمانية فى المنطقة الشمالية حتى نجران ، وعاد الهدوء إلى أن ظهر أقوى الأئمة الزيدية فى ذلك العصر ، وهو الإمام القاسم بن محمد ، فى مستهل عام ١٥٩٧ ، وهو الذى مهد لظهور الحركة الاستقلالية الكبرى التى انتهت بجلاء الأتراك عن اليمن فى عام ١٦٣٥ .

الفصل الثالث

جلاء الأتراك

الإمام القاسم بن محمد مؤسس الدولة القاسمية

(١٥٩٨ — ١٦٢٠ م)

ساد الهدوء فى اليمن فى أوائل حكم الوالى حسن باشا ، ولكنه كان كالهدوء المؤقت الذى يسبق العاصفة ، إذا لم يتعود اليمنيون على الرضوخ لحكم أجنبى مهما كانت صفته الإسلامية ، ولم يكن الخليفة العثمانى يمثل فى نظرهم رئاسة دينية ، وهم لا يعترفون إلا بالإمام الذى تجمع عليه ثقة القبائل . ولذلك ظلوا متربصين سنوح الفرصة لمعاودة المقاومة ، ولاسيما أن القيادة الزيدية لم تفقد وجودها ولم تضعف مكانتها ، على الرغم مما لاقته من العنت والهزيمة أمام قوة لم تقطع ، فى كثير من الأحيان ، مجاراتها فى السلاح والرجال والعتاد .

ولكن فى أواخر القرن السادس عشر ، بدأ اهتمام الدولة العثمانية باليمن يقل عما كان عليه فى الماضى أيام اهتمام سلاطين الدولة بمحاربة البرتغاليين وإغلاق مداخل البحار فى وجوههم ، ثم أصبح جل اهتمامهم موجها إلى الكفاح ضد الدول الأوربية المعادية وفى الميادين الأوربية بالإضافة إلى الاضطرابات الداخلية فى الدولة ذاتها ، ولذلك أخذت سيطرتهم فى اليمن تضعف بالتدريج فى الوقت الذى كان الحكام والموظفون الأتراك فى اليمن يسومون الناس الخسف وسوء المعاملة ، ويبتزون الأموال منهم باسم الخراج الذى كان يمثل ميزانية الحكم فى

اليمن من جهة ، ومن جهة أخرى يرسل جزء منه إلى الآستانه أما الباقى فيوزع على مرتبات الموظفين ورجال الجيش من جند وضباط ويرصد جانب منه على نفقات الحرب والأمن .

الإمام القاسم بن محمد ١٥٩٧ — ١٦٢٠

وظل اليمنيون صابرين على مضض إلى أن ظهر فى أواخر عام ١٥٩٧ رجل من الزيدية ذو شخصية قوية وجذابة ، وينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب ، وهو الإمام القاسم بن محمد ، وكان على جانب كبير من الذكاء والفطنة ، درس العلم على كبار علماء الزيدية ، ووجد نفسه أهلا لإنقاذ الإمامة من الاضطهاد العثمانى وقيادة الشعب إلى الاستقلال ، وطرد الأتراك العثمانيين الذين وصفهم بأنهم (أعداء الله الذين ظلموا العباد وأظهروا فى الأرض الفساد) واستعان على نجاح دعوته بخطبه البليغة ، ورسائله العديدة التى كان يبعث بها إلى كبار القوم ورؤساء القبائل .

وسرت دعوة القاسم فى سهولة ويسر بين الأفراد والجماعات الذين بلغ السخط والتذمر من نفوسهم حد اليأس من صلاح الحال، لذلك استجاب أغلب الناس لدعوة القاسم فقد كانت تعبيرا صحيحا عما يجول فى خاطرهم من السخط على الأتراك الذين كانوا يستخدمون الشدة والبطش فى جمع المال بالإضافة إلى استباحة كرامتهم بتصرفاتهم الخلقية الشائنة .

وقد عاصر الوالى حسن باشا قيام الثورة اليمنية التى تزعمها الإمام القاسم الملقب بالمنصور القاسم الكبير وحاول حسن باشا أن يقضى على الحركة فى مهدها ، إلا أنها كانت أكبر من قوة رجاله فقد انضمت إليها قوات كبيرة من

رجال القبائل ، فاستطاع الإمام مجابهة الهجوم ، والصمود فى وجه الأتراك وتدعيم سيطرته على المنطقة الممتدة من صعدة شمالا إلى مشارف صنعاء جنوبا . وتبين للحكومة العثمانية مبلغ خطورة الثورة القاسمية فأمدت الوالى بالجند والذخائر من مصر وتركيا.

وصمد الإمام لهجمات الأتراك فى الحروب المضنية التى استمرت حوالى ثمان عشرة عاما ، خسر الأتراك أثناءها من الأرواح والعتاد ماجعلهم ييأسون من القضاء على الثورة أو القبض على الإمام . أضف إلى ذلك ما كان يحدث بين صفوف القوات العثمانية من تمرد وعصيان ، وعدم فهم الولاة الذين عينوا بعد حسن باشا لواقع اليمن وظروفه الطبيعية والاجتماعية . وأخيرا اضطر الوالى « محمد باشا » إلى بعث الرسل لمفاوضة الإمام فى عقد الصلح وتم ذلك فى مايو ١٦١٩ ، وبموجبه اعترف العثمانيون بإمامة القاسم واحتفاظه بما كان يسيطر عليه من أقاليم الشمال . وبذلك توطدت أركان الدولة القاسمية الزيدية فى اليمن .

محاولات شركة الهند الشرقية :

لم تكن ثورة الإمام القاسم هى الوحيدة التى شغلت بال الحكم العثمانى فى اليمن ، بل كانت هناك محاولات أوربية لارتياد السواحل اليمنية بقصد فتح باب التجارة مع الموانى اليمنية ، وعلى الأخص تجارة البن التى يحتكر نقلها الأتراك من ميناء مخا إلى جدة ومنها إلى مصر فأوربا . ولم تكف شركة الهند الشرقية البريطانية عن محاولتها ارتياد تلك المناطق التى يسيطر عليها الأتراك . ففى عام ١٦٠٩ أرسلت

الشركة بعثة تجارية يرأسها الكابتن شارپى Sharpey إلى البحر الأحمر ، ثم أرسلت فى أعقابه هنرى ميدلتن Middleton يقود ثلاث سفن تابعة للشركة رست فى عدن حيث عقدت عدة صفقات تجارية ، ثم أقلعت إلى مخا ، ولما علم الحاكم العثمانى هناك بأمرها ألقى القبض على مدلتون ومن معه من المسئولين الإنجليز وعددهم أربعة وثلاثون ، وأرسلهم إلى صنعاء لمحاكمتهم ، بحجة أن الأوامر السلطانية تقضى بإلقاء القبض على المسيحيين الذين يجرؤون على المجيء إلى تلك البحار »[1] . وهناك فى صنعاء وجدوا أن السلطات العثمانية فى عدن قد قبضت على بحارة السفينة التابعة للشركة والتى كان مدلتون قد تركها فى عدن . ويقول مدلتون بعد ذلك إنه استطاع بطريقة الإقناع والرشوة أن يستصدر أمرا من الوالى فى صنعاء بالإفراج عنهم وعادوا إلى مخا حيث أقلعوا من هناك دون تحقيق هدفهم التجارى .

الإمام المؤيد محمد القاسم (١٦٢٠ — ١٦٤٥) :

توفى الإمام القاسم فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٠٢٩ هـ (فبراير ١٦٢٠) فتمت البيعة لأكبر أبنائه محمد القاسم الذى أطلق على نفسه لقب الإمام المؤيد ، وعلى يدى هذا الإمام تم جلاء العثمانيين عن اليمن عام ١٦٣٥ .

وقد سبق للإمام المؤيد محمد القاسم أن اشترك فى الحرب ضد العثمانيين فى عهد أبيه ، وقبض عليه ، وزجوه فى السجن فى قلعة كوكبان ، ثم أفرج عنه فى عام ١٦٠٨ ترضية لأبيه عندما رأى الوالى جعفر باشا أن يجنح إلى السلم ويعقد صلحا مع الإمام مدته عشر سنوات ، وهو الصلح الذى لم يدم طويلا ، وقد تمرس الإمام

---

(١) هوجارث ص ٤٤ .

المؤيد فى الحروب الطويلة التى حدثت فى عهد أبيه وامتلأ بالحقد على الحكم العثمانى وآلى على نفسه أن يطهر البلاد من الحكم الأجنبى .

لذلك قضى الفترة الأولى من حكمه فى تدعيم الإمامة الزيدية ، وذلك بتوحيد الجهود ونبذ الخلافات التى كانت تظهر مابين حين وآخر بين الزيديين ، واستمالة رؤساء القبائل ورؤساء العشائر الذين استجابوا له والتفوا حوله . وحاول العثمانيون من جانبهم أن يغيروا سياسة الشدة والعنف ويحاولوا التقرب من الأهالى ، بتخفيف الضرائب وإقامة ديوان للنظر فى الشكاوى ، وتشييد المساجد ، ولكنها كانت كلها محاولات فردية لأن كثيراً من الحكام الأتراك لم يتسطيعوا أن يغيروا ما بأنفسهم ، وخاصة عندما كانت مرتبات الجند يتأخر دفعها فيثورون ضد السلطة القائمة ويضطر الحكام إلى معاودة ابتزاز الأموال من الشعب بوسائلهم البعيدة عن الرحمة والعدل .

الوالى حيدر باشا :

وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن عينت على اليمن فى عام ١٦٢٥ واليا سيء الخلق ، مرذول الطباع ، إسمه حيدر باشا ، كان يشرب الخمر ويستحل القتل لأتفه الأسباب ، حتى أنه أمر بقتل محمد بن سنان باشا الحاكم التركى لمدينة تعز وقتل معه عددا من أتباعه بسبب معاملته الطيبة للأهالى وشعبيته بين الجند والسكان على السواء . ولكن الشرارة التى أشعلت ثورة الإمام المؤيد محمد القاسم على الحكم العثمانى كانت عندما أقدم حيدر باشا على قتل فقيه من فقهاء اليمن من أشد أنصار الإمام وأكبر الدعاة له . عندئذ استنفر الإمام أنصاره من رؤساء القبائل واندلعت الحرب بين الإمام والقوات العثمانية . وانضم إلى الإمام معظم

أمراء البلدان اليمنية فى الشمال والجنوب ، وحاصرت قوات الإمام صنعاء مدة عامين حتى فر منها الوالى إلى زبيد فى أوائل عام ١٦٢٩ ، وفى الجنوب تمكنت قوات من أعوان الإمام من الاستيلاء على « تعز » ، وما أن سقطت « تعز » حتى تبعتها بقية المناطق فى الجنوب وأعلن أمير عدن انضمامه تحت راية الإمام ، وأصبح موقف العثمانيين فى أشد حالات الخطورة ، وفشلت حملات الإغاثة التى أرسلتها الدولة لإنقاذ الموقف ، وأخيرا عندما تبين لها مدى الخسائر التى تكبدتها فى سبيل الاحتفاظ باليمن ، وأن ما يعود عليها من مزايا سياسية أو اقتصادية بسيطرتها هناك لا يتناسب مع التضحيات التى بذلتها فى مدى قرون من الزمان . وزادها يأسا من الموقف ما حدث من الاضطراب والفوضى فى صفوف القوات العثمانية ، وحركات العصيان التى أدت بالجند إلى مهاجمة قائدهم آخر الولاة العثمانيين على اليمن « قانصوه باشا » واضطراره إلى تسليم نفسه إلى أحد القواد اليمنيين « الحسن بن القاسم » الذى رأف به وسهل له سبيل الفرار إلى مصر .

الجلاء :

لذلك كله ، قررت الحكومة العثمانية إنهاء الاحتلال وإجلاء قواتها عن اليمن ، وشجعها على تنفيذ هذا القرار أن اليمن بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية بعد أن قل استعمال طريق البحر الأحمر التجارى حيث أصبح الطريق الذى اكتشفه البرتغاليون ـ طريق رأس الرجاء الصالح أكثر استعمالا للوصول إلى الشرق .

التراث العثمانى ؟

وهكذا تم جلاء الأتراك فى شهر أكتوبر سنه ١٦٣٥ ، وأصبح اليمن مستقلا

تحت حكم الزيديين ، إلى أن عاد العثمانيون لغزوه عام ١٨٧٢ .

وهكذا حكم العثمانيون أكثر من قرن لم يحاولوا تطوير البلاد ولم يتركوا آثارا تدل على اهتمامهم بالمشروعات العمرانية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ، ذلك لأن الهدف الرئيسى لسياسة العثمانيين فى اليمن كان قاصرا على بسط السلطان بالوسائل العسكرية ، وعلى عادتهم ، لم يضعوا تخطيطا لوجوه الإصلاح أو تطوير البلاد ، وكل ماقاموا به من خدمات أو مشروعات ضئيلة ، كان هدفه التقرب من الأهالى عندما يحسون فى ظرف من الظروف — أن من مصلحتهم ذلك ، واقتصر ذلك الاهتمام على إقامة بعض المؤسسات الخيرية كبناء المساجد والتكايا والمدارس وما أشبه ذلك ، وكان معظمها يقيمه الولاة لتخليد ذكراهم .

وكان نظام الحكم العثمانى فى اليمن عسكريا ، فالوالى هو القائد الأعلى للجيوش العثمانيين المرابطة به ، وحكام المدن وغيرها من المناطق الرئيسية كان الوالى يعينهم من ضباط الفرق العسكرية ، يوجهون كل اهتمامهم إلى إنشاء الحصون والقلاع وملئها بالأسلحة والذخيرة (١) .

على أن العثمانيين كانوا يستعينون ببعض اليمنيين المعروفين بالولاء لهم فى بعض الوظائف الإدارية والمالية والكتابية ، وببعض الزعماء المحليين بتعيينهم لإدارة أقاليمهم مع منحهم الرتب والألقاب العثمانية وتكريمهم بإرسال الهدايا والخلع من السلطان العثمانى ، وأبقى العثمانيون على النظام القبلى السائد فى تلك

---

(١) وكان الوالى على رأس الحكومة ويأتى بعده الكتخدا والدفتر دار ، ثم السناجق والكشاف الذين يحكمون الأقاليم والمدن الهامة ، وفى الوقت نفسه كانت مهمتهم تشمل أيضا قيادة القوات العثمانية عند القيام بالحملات أو إخماد الثورات .

الأقاليم وعلى الأخص فى المناطق الجبلية ، وكان بعض الولاة يقربون إليهم الفقهاء والعلماء الزيديين وغير الزيديين ، لعل عن طريقهم يدعمون سيطرتهم على البلاد . كذلك كانوا يتقربون إلى القبائل التي تقطن بالقرب من المدن بصرف المرتبات الشهرية أو الموسمية لهم وتوزيع الهدايا عليهم مابين حين وآخر وبذلك يؤمنون الطرق والمسالك التى تصل المدن بعضها ببعض . على أن تلك السياسة لم تكن تنجح فى كل الظروف وبقيت تلك القبائل مصدر قلق دائم وثورات داخلية تقض مضاجع الحكام العثمانيين باليمن ؛ فقد كانت القبائل تطمع دائما فى المزيد وتثور لأتفه الأسباب . وظل سلطان الحكم قاصرا على المدن الهامة أو القلاع والحصون التى تحميها الحاميات العثمانية وظلت الأوضاع القبلية فى اليمن على ما كانت عليه .

ولم يترك العثمانيون آثارا إصلاحية كتطوير الزراعة والصناعة والتجارة وطرق المواصلات وبناء المستشفيات ، لأن همّ كثير من الولاة كان موجها إلى جمع الثروات وتبعهم فى ذلك حكام الأقاليم الذين كانوا يعمدون إلى أموال الأهالى بما وسعهم من وسائل ، معتمدين فى ذلك على نظام الدولة المالى الذى ينص على أن ترسل الدولة العثمانية جانبا من مرتبات كبار موظفيها باليمن وتترك لهم تحصيل الباقى من الأهالى ، وذلك فى صورة رسوم أو عوائد يدفعونها مقابل ماتؤديه الحكومة للشعب من خدمات ، وقد عانى الأهلون كثيرا من هذا النوع من الابتزاز بالإضافة إلى ما كانت تعمد إليه الفرق العسكرية العثمانية من الحصول على الأموال بالسلب والنهب فى الأماكن التى ينزلون فيها أو يمرون بها ، ولم يتورع بعض الولاة أثناء العمليات الحربية عن إباحة تلك الوسيلة بالإغارة على القرى وجمع مايحتاج إليه الجند من المؤونة .

وهكذا لم يترك العثمانيون فى اليمن آثارا حضارية أو ثقافية أو اجتماعية رغم طول المدة التى انقضت على وجودهم . أما الأثر السياسى الهام فهو القضاء على القوى اليمنية التى كانت تتصارع فى اليمن ، والتى عرقلت جهود الأئمة الزيديين عن نشر نفوذهم نحو الجنوب ، ولما جلا الأتراك كان الطريق ممهدا أمام الأئمة الزيديين لبسط سلطانهم على اليمن .

الفصل الرابع

اليمن المستقل

بعد جلاء الأتراك عن اليمن عام ١٦٣٥ ، بدأ نجم الأئمة الزيدية فى الصعود ، فحكموا اليمن مستقلين ، وامتد سلطانهم لفترة طويلة فشمل الجنوب العربى حتى حضر موت ولحج ، وقد بدأ الإمام المؤيد محمد القاسم عهد الاستقلال فكان عصره خيرا وبركة على اليمن ، استتبت فيها الأحوال واستقبل الشعب عصرا جديدا تمتعوا فيه بالحرية والاستقرار بعد ما لاقوه على أيدى الحكام العثمانيين من غطرسة وبطش . وبدأ الإمام ينظم شئون الإدارة فى حكومته . ومع أنه كان صاحب السلطة المطلقة فى البلاد ، إلا أنه كان ميالا إلى الشورى ، فأنشأ محكمة عليا كان أعضاؤها من كبار القضاة الذين كانوا من خيرة الفقهاء ، وكانوا — إلى جانب واجباتهم القضائية — يعتبرهم الإمام كمستشارين له فى شئون الدولة .

وبعد وفاته تولى الإمامة أخوه إسماعيل بن القاسم الذى اتخذ لنفسه لقب المتوكل على الله ، وكان إماما ورعا وحاكما عُرف بالعدل وحب الرعية ، وقال عنه المؤرخون إنه كان يؤثر أن ينفق على قصره وعلى نفسه من موارده الخاصة ولا يستحل لنفسه أن يسحب من بيت المال إلا ما يُنفق فى أوجه الإصلاح .

الحركات الانفصالية حضر موت ولحج :

ومنذ بداية القرن الثامن عشر توالى على حكم اليمن أئمة كان شغلهم الشاغل تقوية أنفسهم وتدعيم سلطانهم للتغلب على الحركات التى كانت

تظهر بين حين وآخر والتى كان يقوم بها الطامعون فى الإمامة من أقاربهم ، وإخماد الفتن الداخلية التى كانت تنشب بسبب الحركات الانفصالية أو الاستقلالية التى يقوم بها حكام الأقاليم البعيدة عن العاصمة . فانفصلت حضر موت التى كان الزيديون بقيادة أحمد بن الحسن بن أخى الإمام المؤيد سيطروا عليها . وفى سنة ١٧٣٢ استقلت « لحج » على يد أميرها « فضل بن على » الذى كان الإمام « الحسين بن القاسم » (١٧٢٧ — ١٧٤٦) قد عينه نائبا عنه فى عدن فأسس أسرة السبادلة وأعلن نفسه سلطانا .

وظلت الأحوال فوضى فى اليمن حتى استقرت بعض الشيء فى عهد الإمام المهدى عباس (١٧٤٦ — ١٧٧٤) الذى استطاع بقوة عزيمته أن يتغلب على الثورات التى كانت تندلع بين حين وآخر فى أجزاء مختلفة من اليمن حتى دان له الجميع والتفت حوله القبائل وسنحت له الفرصة لنشر الأمن وإقرار السلام .

وفى عهد هذا الإمام وصلت إلى اليمن بعثة علمية دانمركية على رأسها الرحالة المؤرخ كارستن نيبور Carsten Neibuhr ، وكانت البعثة قد قضت فى مصر حوالى العام ثم أقلعت إلى الجزيرة العربية فوصلت «جده» فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٧٦٣ حيث انتظروا هناك حتى يوفقوا إلى سفينة من السفن التجارية التى تنقل البن من ميناء مخا إلى «جده» ، وانتظروا ستة أسابيع حتى وصلت السفينة التى أقلعت بهم فى ١٩ ديسمبر ، وكانت « اللحية » أول ميناء يمنى رست السفينة قبالته على بعد ستة أميال من الساحل ، وهى تقع شمالى الحديدة ، وهى جزيرة متصلة باليابسة ، ومرفؤها غير صالح للملاحة بسبب الصخور التى تعيق السفن الكبيرة ، وعندما علم حاكم اللحية (الأمير فرحان) بوجودهم دعاهم للنزول فى ضيافته حيث قضوا عدة أيام يدرسون الأحوال الإجتماعية ، ورسم نيبور خريطة للميناء والبلدة ، وتعرفوا بوجهاء

للمدينة ، وزودهم أمير اللحية بالجمال تنقل أمتعتهم . . . والحمير ركوبهم ليبدأوا رحلتهم عبر صحراء تهامة إلى « بيت الفقيه » فى ٢٠ فبراير سنة ١٧٦٣ ، ومعهم الأدلاء الذين أوصاهم الأمير فرحان بالعناية بهم . وقضوا فى الطريق خمسة أيام حتى وصلوا بيت الفقيه [١] . وقد وصف نيبور البلدة بأنها تعتبر مركز القوافل التى تمر بصنعاء ومخا وميناء اللحية فعلى مسيرة يوم تقع التلال المكتظة بأشجار البن ، ولذلك كانت فى ذلك العهد تعتبر سوقا للبن يفد إليها تجّار من الحجاز ومصر وسوريا وتركيا ومراكش وقد لاحظ نيبور أن بعض التجار قد وفدوا إليها أيضا من الهند وإيران . وقد زار أعضاء البعثة حقول البن ، وميناء الحديدة وجعل نيبور بيت الفقيه مركزاً يخرج منه فى سلسلة من الرحلات يكتشف أثناءها منطقة تهامة ويجمع المعلومات الجغرافية لكى يضمّنها فى الخريطة التى بدأ يرسمها لليمن ، فزار « الحديدة » و « وزبيد » وارتاد جميع المناطق الجبلية جنوب بيت الفقيه ودوّن ملاحظاته ، ثم بدأ فى ٢٦ مارس سنة ١٧٦٣ مع رفاقه رحلة شاقة إلى تعز استغرقت خمسة أيام على ظهور الحمير ، وبعد أن قضوا بها عدة أيام عادوا إلى بيت الفقية ليبدأوا رحلات أخرى إلى (مخا) وبريم [٢] وغيرهما فى طريقهما إلى صنعاء التى وصلوها فى ٢٧ يوليه سنة ١٧٦٣ .

وعندما علم الإمام بوصولهم ، أوفد إليهم رسولا يخبرهم أن الإمام (المهدى عباس) يرحب بهم ويدعوهم إلى النزول فى ضيافته وأنه أعدلهم مسكنا خاصا مزودا بكل مايحتاجون إليه ، وأنه سوف يستقبلهم فى قصره بعد يومين ، وقال نيبور إنه وزملاءه اضطروا أن يلزموا بيت الضيافة هذين اليومين فقد كان عليهم

---

(١) بيت الفقيه : سميت بهذا الاسم لأنها المقر الذى دفن فيه أحد الفقهاء اليمنيين (سيد أحمد ابن موسى) الذى يصفه المؤرخ نجم الدين عمارة اليمنى بالعلم والفضل حتى أن قبره كان كعبة الزوار

(٢) داهمت الحمى أحد أعضاء البعثة فى بريم وتوفى ودفن بها وهو بيترفورسكال .

ألا يجوبوا المدينة قبل أن يستقبلهم الإمام . وقد وصف نيبور حفلة الاستقبال وقال إن المهدى عباس كان فى الخامسة والأربعين من عمره ، مهيب الطلعة ، داكن السمرة . محبوبا من رعيته . تميز عهده بالاستقرار إلى حد كبير .

وكان الإمام يرأس مجلس القضاء ، الذى كان قوامه عدة قضاة لهم وحدهم حق الحكم بالإعدام . وقد عرف أعضاء هذا المجلس بالتقشف فى حياتهم ، واشتهروا بالزهد والورع وعدم الاشتغال بغير القضاء ، وكان الإمام يرجع إلى ذلك المجلس فى كل الشئون التشريعية والمدنية . وقد عيّن الإمام لكل بلدة قاض مستقل الرأى ، لايستطيع أمير المدينة أو حاكمها أن يتدخل لتعديل أحكامه ، وكان حريصا على تأمين القاضى فى منصبه ، فلا يتعرض للنقل أو العزل ، على عكس حكام الأقاليم والبلدان الذين كانوا معرضين للنقل أو المحاكمة أو مصادرة أموالهم .

وكانت خزانة الدولة تعتمد على الضرائب المفروضة على مختلف أنحاء البلاد ، يتولى الحكام جمعها وإرسالها لبيت المال الذى يشرف الإمام نفسه عليه . أما مورد الإمام نفسه فهو نصيبه من محصول البن [1] إذ كان من حقه أن يستولى على ربع ثمن البن المصدر من بلاده ، وقد قدر نيبور تجارة البن المصدرة من موانى اليمن بما يوازى خمسة آلاف جنيه انجليزى شهريا .

---

(١) لقد كان لاكتشاف البن وزراعته فى اليمن منذ بداية القرن الثامن عشر أثره الكبير فى تدعيم اقتصاديات البلاد بعد خروج العثمانيين فقد كانت منحدرات اليمن تغطيها شجيرات البن الذى كان يصدر عن طريق ميناء « مخا » الذى اكتسب شهرة عالمية بفضل هذه التجارة — وقد استثمر الهولنديون هذه التجارة ، وكذلك عقد الفرنسيون اتفاقا تجاريا خاصا بتصدير البن مع حاكم مخا الذى يحكم باسم الإمام .

والواقع أن رحلة «نيبور» كانت أول رحلة علمية جدية قامت بدراسة جغرافية ونباتية واجتماعية لليمن فى القرن الثامن عشر ، وكانت كتبه وخرائطه التى رسمها لليمن وسواحله ومدنه نبراسا للرحالة الذين أتوا بعده ، ومرجعا أصيلا لكل من كتب عن اليمن ، وأفاد منها الاستعمار البريطانى الذى اشتد اهتمامه بالجنوب العربى فى القرن التاسع عشر كما سيأتى ذكره .

وبعد أن انقضى عهد الإمام المهدى عباس عام ١٧٧٤ ، عاد التفكك من جديد فى عهد خلفائه ، بسبب التنافس على الإمامة ، والنزعات الاستقلالية التى كانت تظهر بين الحين والآخر بين القبائل والمشيخات ، وكانت أهم تلك الحركات ما ظهر منها فى تهامة عندما أعلن شريف « أبو عريش » استقلاله عن الإمام فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأبو عريش كانت مركز حكومة تهامة اليمن على الحدود الجنوبية لإقليم عسير (١) . واتجهت تلك المنطقة اليمنية بولائها نحو الشمال حيث ظهرت الدولة السعودية الأولى فى نجد والحجاز ، وبدأت العقيدة الوهابية السلفية تغزو الجزيرة العربية ، حيث اعتبر مؤسسها محمد بن عبد الوهاب رسول التوحيد ومجدد المذهب الحنبلى .

الوهابية فى اليمن :

صادفت العقيدة السلفية التى بشر بها محمد بن عبد الوهاب ، ونشرها بالسيف ، آل سعود فى الجزيرة العربية هوى فى نفوس كثير من الرؤساء والمشايخ فى إقليم عسير الممتد بين الحجاز واليمن فى غرب الجزيرة . وكانت بلاد هذا الإقليم يحكمها

---

(١) تقع أبو عريش على مسافة ٣٥ كيلو مترا من ميناء جيزان : غزيرة المياه كثيرة المزارع وترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٥٠ قدما .

حكام محليون ، لا تربطهم رابطة سياسية قوية بالشمال ولا بالجنوب . فلما انتشرت مبادئ ابن عبد الوهاب فى الحجاز على يد الدولة السعودية الأولى ، ووصلت أنباؤها إلى عسير ، واقتربت الفتوحات السعودية من حدود تهامة ، هاجر إلى « الدرعية » عاصمة السعوديين رجل من عسير اسمه محمد بن عامر ، وكنيته (أبو نقطة) ، لكى يدرس المبادئ الجديدة عن قرب ، ويتعرف على علمائها وزعمائها ، ويتقرب إلى الأمير السعودى الكبير عبد العزيز بن محمد آل سعود ، لعله يكتسب ثقته ويكون وسيلته لنشر الدعوة الجديدة فى عسير واليمن بعد أن يعينه أميرا على الإقليم .

وقد راقت الفكرة لعبد العزيز ، فأمر بإرسال حملة لغزو المناطق الجنوبية على أن يرافق الحملة محمد بن عامر (أبو نقطة) . وفى عام ١٨٠٠ م انتشرت العقيدة فى عسير ، وبلغ « أبو نقطة » أمنيته بتعيينه أميرا على عسير بعد أن أخذ على عاتقه تدعيم المبادئ الوهابية فى ذلك الإقليم ، والتوسع باسم السعوديين جنوبا فى الأراضى اليمنية .

وبدأ مشروعه فى عام ١٨٠٤ بالإغاره على «أبو عريش» أشهر بلاد تهامة اليمن ، وكانت تابعة لإمام اليمن حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وعندما زار الرحالة نيبور صنعاء عام ١٧٦٣ وجد أن أشراف « أبو عريش » قد استقلوا عن البيت المالك فى صنعاء .

وعندما بدأ أبو نقطة فى حملته على «أبو عريش» كان يحكمها إذ ذاك الشريف « حمود » وكنيته (أبو مسمار) ، وكان هذا الشريف قد رفض من قبل أن يعتنق المبادئ الوهابية وحمل عليها ولم يسمح بانتشارها فى إمارته . ولكن القوة التى حملت على «أبو عريش» بقيادة «أبو نقطة» فى عام ١٨٠٤ م تمكنت من اكتساح المنطقة ، فسلمت أبو عريش واضطر الشريف حمود إلى الفرار .

وفى عام ١٨٠٥ توغلت قوات « أبو نقطة » فى حدود اليمن ، متجهة نحو الموانى اليمنية على الساحل فأغارت على « اللحية » و « الحديدة » حيث أعملت فيهما النهب والسلب . وكان إمام اليمن إذ ذاك « على المنصور » من الضعف وقلة الحيلة بحيث لايملك رد الغزاة . وقدوصفه الرحالة اللورد فالنتيا(١) Valentia الذى زار اليمن فى نفس العام بأنه كان فى الثمانية والسبعين من عمره ، وأنه كان ضعيف الإرادة واهن العزيمة حتى أن أولاده التسعة كانوا يتنازعون على ولاية العهد ، حتى فى حضرة أبيهم .

وفى عام ١٨٠٩ كان الإمام « على المنصور » قد وهنت صحته وعجز عن تدبير شئون الحكم وتمكن ابنه أحمد بن على المنصور من الاستيلاء على السلطة كلها ، وانتهز الشريف حمود الذى فر من عسير الفرصة فقابله واتفق معه على حماية الحدود اليمنية ضد الوهابيين ويستعيد سيطرة اليمن على موانيها التى كانت تتعرض دائما لمهاجمتهم بقيادة أمير عسير (أبو نقطة) واشترط أن يعين من قبل الإمام حاكما على منطقة اللحية والحديدة وبيت الفقيه(٢) . وأمده الإمام بقوات يمنية هاجم بها أبو عريش ، ولكنه وجد الدفاع عنها قويا حيث كان (أبو نقطة) يعسكر هناك بعشرة آلاف مقاتل ، ولم يجد الشريف حمود بدا من إيجاد وسيلة يتخلص بها من غريمه شخصيا فتسلل تحت جنح الظلام ، ومعه أربعون فارسا لبسوا جميعا ملابس البدو الوهابيين ، إلى معسكر العسيريين فدخلوه دون أن يشتبه فيهم أحد . وعند الفجر كان الشريف حمود ومن معه يقتحمون خيمة عدوه وأجهز بيده على غريمه وتسلل مع فرسانه هاربا وسط الهرج الذى ساد المعسكر ، وبذلك تخلص من أكبر خطر يتهدد الحدود اليمنية .

(1) Valentia (George, Lord) : Voyages and Travels to India, Cylon, and the Red Sea, Pxayfair : A Hisrory of Arabia Felix or Yemen P. 128.

(2) Salt, Henry ; A Voyage to Abyssinia (London) 1814 P.124

وبعد مقتل محمد بن عامر (أبو نقطة) عين « سعود الكبير » أميرا جديدا على عسير اسمه (طامى بن شعيب) وكلفه مواصلة العمل على التوسع نحو الجنوب فى الأراضى اليمنية ، وكان طامى من أشد المتحمسين للمبادىء الوهابية يجاهد فى سبيل نشرها فى عسير ويتطلع إلى القيام بنشرها فى اليمن ، وهو الذى لعب بعد ذلك دورا هاما فى مقاومة الفتح المصرى لعسير إذ صمد كثيرا أمام القوات المصرية ، وعرقل نجاحها فى إرساء قواعد حكم محمد على فى تلك المنطقة .

وعندما بدأت الحملة المصرية على الحجاز ، أراد محمد على أن يستغل فرصة الخلاف بين أمير أبو عريش وأمير عسير ، فأرسل أحد أتباعه (يوسف أغا) إلى الشريف حمود يعرض عليه الاتحاد مع المصريين فى حروبهم ضد العدو المشترك فى عسير . وكان هذا المندوب مكلفا أيضا بأن يسافر إلى صنعاء بعد انتهاء مهمته مع الشريف حمود لمقابلة إمام اليمن ومفاوضته فى أمر التعاون مع القوات المصرية ضد من سماهم « بالوهابيين الذين يرأسهم طامى بن شعيب الطامع فى غزو اليمن لمصلحة السعوديين » .

وعندما ذهب محمد على بنفسه لإتمام فتح الحجاز فى أغسطس ١٨١٣ ، وانتهت مهمته هناك وجه قواته فى يناير سنة ١٨١٥ نحو عسير وانتصر على طامى بن شعيب واحتلت قواته «رَنْيه» و «بيشه» اللتين يعتبرهما العرب مفتاحى اليمن الشرقى. أما طامى فقد أسر وأرسله محمد على إلى الآستانه حيث أعدم هناك . وبعد عودة محمد على إلى مصر قامت حملة مصرية بقيادة « خليل باشا » (ديسمبر ١٨١٨) لضم منطقة أبو عريش اليمنية ، ونجحت فى الاستيلاء عليها وعلى جيزان والحديدة وزبيد وبيت الفقيه واللحية وهى الجهات التى كان الشريف حمود قد اغتصبها من إمام صنعاء . إلا أن محمد على لم ير الوقت ملائما للتوسع فى اليمن ،

فهو لا يزال يأتمر بأمر السلطان ، وهو يدخر اليمن لمستقبل قريب عندما يستطيع تحقيق أطماعه فى الاستقلال عن الدولة العثمانية . لذلك قرر إعادة أملاك الإمام له فى نظير أن يتعهد الإمام بدفع جزية سنوية قدرها مائة ألف ريال يرسل بدلا منها ثلاثة آلاف قنطار من البن باسم السلطان ، واكتفى بيسط السيطرة المصرية على « أبو عريش » فى تهامة اليمن بأن عيّن عليها أحد الأشراف الموالين له وهو الشريف « على بن حيدر » .

ومما يجدر ذكره هنا أن الحكومة البريطانية التى بدأ اهتمامها بعدن والجنوب الغربى فى ذلك الحين ، كانت ترقب بعين الحذر تلك الاتصالات التى جرت بين محمد على وإمام اليمن فكلفت قنصلها البريطانى (سولت) أن يستشف الموقف عند محمد على نفسه ، وعندما قابله أخبره محمد على أنه أعاد إلى إمام اليمن أملاكه التى تم الاستيلاء عليها فى عام ١٨١٩ فى مقابل أن يرسل جزية سنوية من البن باسم السلطان .

وكان محمد على يمنّ على إمام اليمن بذلك الصنيع الذى أداه له بالتخلى عن البلاد التى تمكنت حملة خليل باشا من الاستيلاء عليها ، ولم يف إمام صنعاء بما وعد ، وقلل كمية البن التى كان يرسلها ، ولكن حرصه على إرضاء محمد على ، جعله يرسل فى عام ١٨٢٠ رسولا إلى أحمد باشا يكن حاكم الحجاز يلتمس تخفيض المقدار السنوى المطلوب ، محتجا بكثرة الجراد الذى أضعف محصول البن ، ولكن محمد على رفض تخفيض تلك الضريبة المفروضة على الإمام وقال فى كتابه لأحمد باشا : يكن: « لقد أعطيته بدل البن بلادا واسعة فى نظير ذلك المقدار من البن المتفق عليه » . (١)

---

(١) من محمد على إلى أحمد يكن وثيقة رقم ٣٠٠ دفتر ١٤ معية تركى ص ٧٦ (٤ جمادى الثانية ١٢٣٩ هـ) .

ومع أن محمد على كان فى تلك الأيام بعيد التفكير عن القيام بضم اليمن إلى البلاد التى تم فتحها فى الجزيرة العربية ، إلا أنه كان حريصا على التمسك بالاتفاق الذى تم بين مندوبه وإمام اليمن بشأن الجزية السنوية باسم السلطان ، إلى أن تواتيه الفرصة ويأمر قواته بالتقدم جنوبا ، ولا سيما أن تلك القوات كانت منشغلة بإخماد الثورات التى تقوم فى عسير ، ولذلك كتب إلى أحمد باشا حاكم الحجاز يأمره بأن يضاعف جهده فى هذا السبيل حتى إذا تم له ذلك « توغل فى أرض اليمن واتجه رأسا إلى صنعاء حيث يقيم الحكم المصرى ويعيد الأمن إلى نصابه » (١) .

---

(١) من محمد على إلى أحمد يكن : وثيقة رقم ٣٠٠ دفتر ١٤ معية تركى ص ٧٦ بتاريخ ٤ جمادى الثانية ١٢٣٩ .

الفصل الخامس

محمد علي والسياسة الانجليزية في الجنوب العربي

نجح محمد علي في القضاء على الدولة السعودية ، وتحكم في مياه البحر الأحمر على شاطئيه الشرقي والغربي بسيطرته على شبه الجزيرة العربية من جهة ، والسودان من جهة أخرى وراجت تجارة مصر في حاصلات بلاد العرب وأفريقيا عن طريق ميناءي « مخا » و « مصوع » وخشي الانجليز أن يتحكم أيضا في الطريق إلى الهند ، فتتأثر بذلك التجارة الانجليزية التي تشرف عليها شركة الهند الشرقية ، والتي تمر من الشرق إلى أوربا عن طريق البحر الأحمر .

وقد كان محور السياسة الانجليزية في الشرق يدور حول تأمين الطريق إلى الهند ، والانتفاع بموانى جزيرة العرب كجدة ومخا وعدن كقواعد للتجارة الهندية ومنع أي قوة كبرى من التسلط على البحر الأحمر والخليج العربي ، ولعل التقرير الذي رفعه الماريشال دي كاسترى de Castrie وزير البحرية الفرنسية إلى الملك لويس السادس عشر هو الذي جعل انجلترا تحرص على هذين الطريقين ، فقد قال دي كاسترى : « إن البحر الأحمر والخليج الفارسي يشبهان ذراعين مدتهما الطبيعة لوصل الهند بأوربا » .

وعندما بدأ الصراع بين انجلترا وفرنسا في الشرق ، ودارت الحرب بينهما ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٠٢ ، ومنذ أن احتل الفرنسيون مصر ، اتجهت أنظار

الانجليز إلى البحر الأحمر الذى أصبح يحتل أكبر جانب من اهتمامهم[1] ، لذلك عنيت الحكومة البريطانية بإنشاء علاقات ودية مع حكام الجزيرة العربية ، كشريف مكة ، وإمام صنعاء .

وأرسلت انجلترا أحد كبار وزارة الخارجية وهو السير بوبهام فى عام ١٨٠٢ إلى سواحل البحر الأحمر ، وكانت مهمته أن يثير شعور العرب ضد الفرنسيين بأن يبين لهم مدى الخطر المحدق بهم بسبب احتلال نابليون لمصر ، وأنه من الجائز أن تفكر فرنسا فى إنزال قواتها على شواطىء البحر الأحمر ، فعلى حكام الجزيرة العربية إذن لأجل سلامتهم وسلامة بلادهم أن يساعدوا الانجليز ويتمسكوا بمحالفتهم ، وقد وصل بوبهام إلى عدن ، ولم يبرحها إلا بعد أن عقد مع سلطان لحج اتفاقا تجاريا فى عام ١٨٠٢ فتحت بموجبه عدن أبوابها للتجارة الانجليزية . وأصبح هم السياسة الانجليزية أن تعمل على التسلط على الموانى اليمنية .

ولما ظهرت القوة المصرية فى البحر الأحمر وتجلى للانجليز أهداف محمد على الاقتصادية وتطلعه إلى التحكم فى الموانى اليمنية ، حاولت أن تسبقه إليها ، ثم أخذ الجانبان يراقب كلاهما الآخر فى قلق وحذر ، وتأهب الأسطول البريطانى للعمل عند الضرورة . وسمع محمد على عن تلك الاستعدادات البريطانية للعمل فى مياه اليمن فطلب إلى حاكم الحجاز أن يوفد رسولا إلى مخا ليتجسس عن تحركات ذلك الأسطول وعن نواياه فى الحاضر والمستقبل .

كانت ميناء « مخا » هى هدف الانجليز الثانى بعد عدن ، نظرا لموقعها الهام ولأهميتها التجارية ، ولأنها تعتبر أهم سوق لمحصول البن اليمنى الذى تجلبه قوافل

---

(1) Charles – Rour ; L' Angleterre et L' Expedition Francaise et Egypte P. 324

التجار اليمنيين من منحدرات الجبال البعيدة ، وكانت منذ القرن الخامس عشر مستقرا للسفن الأوربية التجارية ، وفى مستهل القرن السابع عشر شيد الانجليز والهولنديون مؤسسات تجارية ، وظلت حوالى قرنين منذ هذا الاتصال الاوربى مركزا تجاريا هاما . وقد زارها الرحالة فان دن برويك Van Den Broek فى عام ١٦١٦ ووصف أسواقها بأنها كانت مملوءة بالبضائع الواردة إليها من الهجر والبندقية وأن تلك البضائع كانت ترد إليها بواسطة القوافل عبر شبه الجزيرة العربية بقصد أن يتبادلها التجار بالبضائع الشرقية . ثم وصف البلدة بأنها تضم مجتمعا منتعشا يضم عدداً كبيراً من الأجانب من مختلف الجنسيات وفدوا إلى « مخا » لما سمعوه عن شهرتها ومركزها التجارى(١) .

وعندما فكر الإنجليز فى ميناء « مخا » ، كانوا يعلمون أنها تابعة لإمام اليمن ، المهدى عبد الله (١٨١٦ — ١٨٣٢) ولما كانت الإمامة قد ضعفت منذ أواخر القرن الثامن عشر ، رأت حكومة الهند البريطانية أن الفرصة سانحة لبسط النفوذ الإنجليزى فى الجنوب العربى ، وبدأت ترسم الخطة مترقبة أول فرصة تلوح لها لتوسيع دائرة نفوذها . وسنحت الفرصة فى عام ١٨٢٠ ، عندما أقدمت وكالة أعمال بريطانية على احتجاز أحد السكان العرب وحبسه فى بنايتها ، ثم أطلق سراحه بناء طلب حاكم مخا العربى (المتصرف) الذى يحكم باسم الإمام . ولم ينته الحادث عند هذا الحد ، بل عمد المتصرف اليمنى إلى القبض على حرس الوكالة الإنجليزية ، وعلى ربان سفينة انجليزية كانت راسية فى الميناء بطريق الصدفة . ثم قبض على

---

(١) كانت مخا منذ قرون مركز التجارة عند العرب ، تزدحم بالمسافرين وباصحاب السفن من العرب الذين كانوا يشتغلون بالتجارة ويمتدون بها إلى الشواطىء الأفريقية والهندية ، وظلت طيلة العهد العثمانى مزدهرة تجتذب إليها التجار من كل الجنسيات . كانت الميناء الرئيسى لتصدير البن ، وما زال اسمها يطلق فى أوربا وأمريكا على أجود أصناف البن . وكان عدد سكانها سنة ١٨٢٠ حوالى عشرين ألف نسمة .

القنصل البريطانى . وقد أهين الجميع وضربوا(١) . وقد كانت إهانة القنصل بالغة جعلت حكومة الهند تبدأ فورا فى وضع خطة لتنفيذ أهدافها ، وقررت إرسال قوة بحرية تحقق تلك المهمة .

وصلت تلك القوة فى سفينة حربية إلى الميناء ، وأرسل قائدها إلى إمام اليمن يطلب الترضية ، وأخبره أن الحكومة البريطانية فى الهند أعدت سفنا حربية أخرى تلحق بسابقتها إن لم يخضع الإمام للترضية المطلوبة . أما تلك الترضية التى طلبها الإنجليز فتدل دلالة واضحة على رغبتهم فى استغلال الحادث للحصول على عدة امتيازات سياسية ، وكان أهم تلك المطالب :

أولا : بناء دار انجليزية على الساحل وفتح بابها من جهة البحر .

ثانيا : تخفيض رسوم الجمرك على البضائع الإنجليزية بحيث يدفع التجار الإنجليز أقل مما يدفعه غيرهم من الجنسيات الأخرى .

ثالثا : يصبح من حق القنصل البريطانى المقيم فى (مخا) أن يفصل فى جميع القضايا المتعلقة بشركة الهند ، وقضايا جميع الرعايا البريطانيين مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

رابعا : أن يقيم بدار القنصل البريطانى أربعون حارسا مسلحا للقيام بواجب التنظيم للقنصل ، وأن تعزف موسيقى الحرس كل يوم فى ميعاد تناول الطعام .

وقد هدد القائد إمام اليمن بأنه إن لم يجبه إلى تلك المطالب فإن عدة سفن حربية كبيرة على وشك الوصول (لضرب مخا وسائر البنادر) .

---

(١) انظر Dodwell : The Founder of Modern Egypt, p. 60

رفض إمام اليمن فى أول الأمر أن يخضع للتهديد ، وعندئذ بدت على الساحل عدة سفن حربية أخذت تضرب مخا بالقنابل فتهدمت الحصون ودمرت عدة مبان ، ولما لم يكن هناك دفاع يذكر ، ولم يبق للأهالى من أمل فى إمام اليمن ، اضطر بعض وجهاء المدينة إلى التماس مقابلة القائد الانجليزى وقبلوا المطالب الانجليزية . وأخيراً رضخ الإمام أمام تلك الظروف ووقع فى ١٥ يناير سنة ١٨٢١ على المعاهدة التى أعدها البريطانيون وسلم بموجبها بجميع المطالب .

وكان لهذا الحادث أثره البالغ فى الآستانة والقاهرة . فمن وجهة النظر التركية يعتبر الحادث اعتداء على بلاد إسلامية تعتبرها الدولة خاضعة للسيادة العثمانية رغم استقلال اليمن الذى تمتع به منذ عام ١٦٣٥ ، ومن وجهة نظر محمد على كان يرى فيه تهديداً لسلطانه فى الجزيرة العربية ، وخطراً على مشروعاته المستقبلة فى الجنوب العربى .

ولم تكن نيات محمد على ، ونشاطه الذى يبديه فى البحر الأحمر وسواحل اليمن مخافاً على الحكومة البريطانية ، فمنذ أن تم له فتح بلاد العرب ، ثم السودان ، ومنذ أن بدا لهم أن البحر الأحمر كاد يصبح بحيرة مصرية ، وهم يبدون أشد الاهتمام بتتبع هذا النشاط والعمل على وقفه ، فقد أثرت عملياته الحربية فى الجزيرة والسودان فى ثلاث مناطق يعتبرونها مجالهم الحيوى ، ويخشى عليها منه فى المستقبل : البحر الأحمر ، والخليج الفارسى ، والحبشة . وكانت شركة الهند الشرقية ترى من واجبها أن تقوم على حراسة الملاحة الهندية حتى البصرة فى الخليج الفارسى ، والى جده فى البحر الأحمر ، ولاسيما أن ضعف القوة الإيرانية (الفارسية) والقوة التركية يجعل أمر حراسة المواصلات البريطانية فرضا لازما على حكومة الهند البريطانية فى الوقت الذى انتشرت فيه القرصنة البحرية منذ قيام الحركة

الوهابية(١) فلما قضى محمد على على تلك الحركة وأصبح مسيطرا على ساحلى البحر الأحمر خشيت انجلترا أن يأتى الوقت الذى يتحكم فى طريق الهند ، مما يؤثر على التجارة الانجليزية التى تمر من الشرق الى أوروبا عن طريق البحر الأحمـــــر ، ويكون ذلك التحكم أمراً له خطورته(٢) .

لذلك فكرت الحكومة البريطانية فى تدعيم نفوذها فى موانى اليمن ، وبدأت بميناء مخا ، ولذلك تجلى بين محمد على والباب العالى فى هذه المسألة اتحاد فى الفكر واتفاق فى العزم على إبعاد الاستعمار الأجنبى عن الجنوب العربى ، فقـــد ظهر بأجلى بيان أن اهتمام بريطانيا بميناء مخا والحركات التى تقوم بها سفنها الحربية على الساحل ما هى الا مقدمة لفتح الطريق أمام الانجليز للوصول إلى صنعاء والسيطرة على اليمن .

وقد ازداد هذا الاعتقاد رسوخا عندما وصلت سفينة تجارية بريطانية فى صيف عام ١٨٢٢ إلى ميناء مخا مملوءة بالمهمات الحربية والخيام ، نقلت كلهـا إلى دار القنصل ، ثم تلتها أخرى تحمل مهمات وسلاسل ضخمة من الحديد أشيع أن الغرض منها سد مضيق باب المندب ، وإنشاء قلاع على جانبى المضيق تعسكر فيها حاميات بريطانية(٣) .

وقد حدثت اتصالات بشأن ذلك النبأ بين مصر والآستانة ، وطلب محمد على من حكومة الباب العالى السعى فى وقف تلك الحركات الإنجليزية بالطريقة الدبلوماسية ، وفى ٢٥ يوليه سنة ١٨٢٢ ، تسلم السفير البريطانى بالآستانه مذكرة رسميه من الباب العالى ، يوجهون فيه نظر الحكومة البريطانية إلى خطورة تلك التصرفات

---

(1) Dodwell The Founder of Mobern Egypt. p. 55 — 56

(2) Driault La Formatoin ae L. Empire de Moh. Ali. p. 269

(٣) من الصدر الاعظم محمد صالح إلى محمد على : دفتر رقم ٧ وثيقة رقم ٧١ بحر برا (٢٢ ربيع الأول ١٢٣٦)

من جانب ممثليها فى الهند والبحر الأحمر فى موانى اليمن ، وعلى الأخص سلوك السفن الانجليزية وتصرفات قنصل بريطانيا فى « مخا » ، وأكدت الحكومة العثمانية فى مذكرتها « أن جهات مخا ، باعتبارها ملكا للدولة العلية ، ومن أراضيها لا يسعها إلا حمايتها وحراسة سكانها وصيانة حقوق أهلها لقربها من الكعبة الشريفة التى تعظمها الذات الشاهانية ، لذلك فإن الدفاع عنها واجب شرعا وعقلا حتى لا يحدث ما يخل بالدين الإسلامى فى أرض إسلامية [1] » .

ورد السفير البريطانى على المذكرة العثمانية بأن الخيام التى وردت فى السفينة الانجليزية كانت كلها هدية من حكومة الهند البريطانية إلى إمام صنعاء « المهدى عبد الله » ووزيره وأنه قبلها شاكرا ممتنا ، وأما الصناديق التى ظن رستم أغا — وهو الذى أبلغ مصر تلك الأنباء — أن بها ذخائر ومدافع فلم يكن بها سوى مأكولات ومشروبات وأدوات منزلية خاصة بالقنصل البريطانى هناك ، وأما مسألة السلاسل الضخمة التى حملتها سفينة انجليزية إلى « مخا » وقيل إنها لسد باب المندب فذلك تأويل باطل وواه ومخالف للحقيقة ، ذلك لأن المسافة بين البوغاز وجزيرة بريم الواقعة فى تلك الجهة يبلغ ثلاثة أميال من إحدى تلك الجهات ، واثنى عشر ميلا من الجهة الأخرى . أما فيما يختص بالامتيازات التى حصلت عليها حكومة الهند البريطانية بموجب معاهدة ١٥ يناير سنة ١٨٢١ فإنها لا تتعدى أن تكون من طراز المعاهدات التى عقدتها الحكومة البريطانية مع الدولة العلية ، وقد عقدتها مع إمام صنعاء رغبة منها فى حماية شركة الهند والرعايا البريطانيين من الظلم الواقع عليهم واتخاذ الإجراءات الشديدة ضدهم [2] .

(١) محفوظات دار الوثائق المصرية : ترجمة التقرير الرسمى المعطى من طرف الدولة العلية إلى سفير انجلترا بالآستانة ، محفظة رقم ٨ وثيقة رقم ١٧ بتاريخ ٦ ذى العقدة ١٢٣٧ .

(٢) محفوظات دار الوثائق : من قنصل انجلترا فى مصر سولت إلى ستراتفورد سفير انجلترا بالآستانة بتاريخ ١٦ أغسطس سنة ١٨٢٢ إفادة رقم ٤٨٢ [محفوظات المعية محفظة ١٦ وثيقة ٨٢ .

كذلك أرسل حاكم الهند إلى سولت القنصل الانجليزى فى القاهرة يطلب إليه أن يذكر محمد على بأن « تصوُّر أى خلل يطرأ على رابطة المودة بينه بين الانجليز أمر يدعو إلى أشد الأسف ، فحكومة الهند البريطانية لم تقصد بضرب الحصار على موانى صنعاء سوى الحصول على الترضية الكافية من الإمام نظير ما حدث لرعاياها فى مخا(١) .

وهكذا انتهت مسألة مخا عند هذا الحد ، ولكن ظل الاعتقاد سائدا فى مصر والآستانة أن انجلترا تنوى أن تترقب الفرص للسيطرة على اليمن للانتفاع بموانيه وتجارته . وظنت تركيا أن باستطاعة محمد على المسيطر على معظم أنحاء الجزيرة العربية إذ ذاك أن يقوم باحتلال اليمن وموانيه حتى عدن باسم السلطان كما فعل فى الحجاز ونجد ، إلا أنه كان منشغلا إذ ذاك بحملته فى السودان ، وتنظيم الجيش المصرى الجديد . فكفّ يده عن القيام بأى مشروع من هذا القبيل .

ولكنه كان فى الوقت نفسه متيقظا للسياسة الانجليزية التى ترمى إلى السيطرة بالتدريج على الجنوب العربى ؛ ولذلك أرسل فى نوفمبر سنة ١٨٢١ إلى حاكم الحجاز أحمد باشا يكن يأمره بأن يتخذ من الإجراءات ما يكفل ضمان الدفاع عن سواحل البحر الأحمر وأن (يتخذ من الاحتياطات السريعة ضد السفن الانجليزية الواردة إلى مخا والحديدة بقصد السيطرة عليها) .

وقد اتخذ حاكم الحجاز عدة إجراءات عاجلة ، إذ أرسل إلى « أبو عريش » قوة تتألف من خمسة وعشرين ألف جندى استعدادا لما عسى أن يحدث من الحوادث

---

(١) محفوظات دار الوثائق : من حاكم الهند العام إلى سليوت . ملحق بالوثيقة رقم ١٤٠ محفظة ٧ بتاريخ ٢١ مايو سنة ١٨٢١ .

وأرسل الى إمام اليمن يحذره من « حيلة الانجليز وعدم الإذعان لمطالبهم اذ أن هدفهم هو الاستيلاء على اليمن » . ولعل السبب الذى أدى إلى إرسال هذا التحذير ماسمعه عن حركات أخرى يقوم بها الانجليز فى اليمن بعد ضرب مخا وعقد معاهدة ١٥ يناير ١٨٢١ إذ أخذوا يحاولون استرضاء الإمام والتظاهر بصداقته ، فالقنصل الانجليزى يرسل إليه الهدايا الفاخرة من ملابس وخناجر وخيام ، ولا يكتفى بتوثيق الصلة بالإمام وحده ، بل أخذ يتنقل من حين الى آخر داخل البلاد لمحاولة الاتصال برؤساء القبائل ، ويستميلهم بالمال والخلع والهدايا المختلفة .

واستخدم محمد على فى تلك المرحلة الوسائل الدبلوماسية من جهة ، والاستعداد الحربى من جهة أخرى لإبعاد النفوذ البريطانى عن اليمن حتى تتهيأ الفرصة للاستيلاء على اليمن كله .

الفصل السادس

ثورة تركجة بيلمز
وبداية الفتح المصرى لليمن

١٨٣٢ — ١٨٣٤

منذ أن وطئت القوات المصرية أرض الجزيرة العربية ، كان محمد على يتطلع إلى فتح اليمن ، وكان امتلاكها يشغل جانبا كبيرا من تفكيره ، ولكن أطماعه فيها كانت اقتصادية أكثر منها سياسية . فموانيها التجارية الهامة ، كاللحية ، والحديدة ، ومخا ، وعدن ، وموقع تلك الموانى على البحر وما يمكن أن تدره جمارکها من المال الوفير ، وتجارة البن العظيمة التى يتطلع إلى احتكارها ، ورغبته فى فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع المصرية التى كان يحتكرها فى مصر ، كل ذلك جعله يفكر جديا فى الاستيلاء على اليمن . وشجعه على التفكير فى هذا المشروع اعتقاده بأن « ظلم إمام اليمن لرعيته من جهة ، وضعفه المعروف من جهة أخرى يجعل المهمة سهلة ميسورة »[1] .

وقد رأينا كيف ظهر اهتمام محمد على باليمن بأجلى معانيه عندما سمع عن الأطماع الانجليزية فى الأراضى اليمنية فى حادث « مخا » فى أواخر عام ١٨٢٠ ، والمعاهدة التى فرضوها على إمام اليمن فى يناير ١٨٢١ ، وفى الوقت الذى كان مشغولا فيه بحروب أخرى فى السودان أو فى اليونان كان يدخر فتح اليمن إلى حين سنوح

---

(١) من محمد على إلى أحمد يكن . وثيقة رقم ٦٥ دفتر ٧ معية تركى ـ عابدين (٢٧ صفر صفر ١٢٣٦ هـ ـ نوفمبر ١٨٢٠) .

الفرصة ، ولكنه لم يكن يطيق أن يسمع عن تدخل قوة أخرى فى شئون اليمن أو فى أى عدوان يقع على أراضيه حتى ولو كان العدوان داخليا ، ففى سنة ١٨٢١ سمع عن عدوان قبائل «يام» على ميناء اللحية وماحدث نتيجة ذلك من نهب أموال التجار هناك ، فعنف حاكم الحجاز على أنه عرف هذا ولم يحرك ساكنا، وأمره أن يعمل على صد العدوان عن أى ميناء يمنى، واقترح عليه أن يستعين بالشريف «على بن حيدر» ، وهو الذى عينته الحكومة المصرية أميرا على « أبو عريش » ، وكانت أبو عريش هى أقرب الجهات إلى اللحية(١)

ولم يكن محمد على يريد أن يبدأ بفتح اليمن حتى ينتهى أحمد باشا يكن من القضاء على الثورات القائمة فى إقليم عسير ، لذلك كان يلح عليه دائما أن يضاعف جهوده فى هذا السبيل ، حتى إذا تم له ذلك « توغل فى أرض اليمن ، واتجه رأسا إلى صنعاء حيث يقيم هناك حكومة تعيد الأمن إلى نصابه »(٢) .

وفى يناير سنة ١٨٢٤ ، تلقى محمد على أمرا من السلطان يكلفه فيه بإخماد الثورة اليونانية (بلاد المورة) فرأى أن يرجىء غزو اليمن . وأرسل إلى أحمد يكن يقول : « أصبح لازما الآن أن أجهز ابنى إبراهيم بأقوى المعدات والمهمات وأرسله إلى مأموريته ، فإن وصلك كتابى هذا وأنتم فى عسير فعليكم أن تنتهوا من تأديب أشقيائها وتعيدوا الأمن والنظام إلى ربوعها ولا تتقدموا إلى الإمام نحو اليمن بل عودوا إلى مكة » .

---

(١) من محمد على إلى أحمد باشا يكن : وثيقة ٨٠ دفتر ١٠ معية تركى عابدين بتاريخ ربيع الثانى ١٢٣٧ (ديسمبر ١٨٢١ .

(٢) إقليم عسير يقع بين الحجاز شمالا ، واليمن جنوبا ويمتد غربا من البحر الأحمر إلى أن يصل إلى نجد شرقا ، وقبيلة عسير التى أطلق اسمها على هذه البلاد ترجع بأنسابها إلى الأزد من أعظم القبائل اليمانية .

(٣) من محمد على إلى أحمد يكن : وثيقة ٣٠٠ دفتر ١٠ معية تركى عابدين ض ٧٦ [٤ جمادى الآخر ١٢٣٩ — فبراير ١٨٢٣]

وظل مشروع غزو اليمن مطويا فى صدر محمد على إلى عام ١٨٣٢ ، عندما قامت ثورة أحد الفرسان غير النظاميين فى الحجاز ضد الحكم المصرى ، وذلك فى الوقت الذى كان النزاع بين محمد على والسلطان على أشده ، واشتبكت الجيوش المصرية مع الجيوش العثمانية فى الشام .

ثورة تركچه بيلمز ١٨٣٢ — ١٨٣٣ :

كان محمد على قد تخلص من عدد كبير من جنوده الألبان وغيرهم من قواته غير النظاميين بإرسالهم فى حملاته فى الجزيرة العربية ، ولكنه لم يسلم من متاعبهم ومناوشاتهم التى تعودوا عليها هناك ، وكانوا مصدر قلق دائم لحكومته فى الحجاز ، فكثيرا ما كانت مرتباتهم تتأخر عليهم فتثور ثائرتهم ، ويهددون بالعصيان ، وتضطر حكومة القاهرة إلى المسارعة فى إرسال الأموال الى الحجاز حتى لا تتفاقم حركات التمرد والعصيان بين القوات المعسكرة هناك .

ولكن منذ أن بدأ محمد على يرسل الجنود إلى الشام لمحاربة السلطان ، أخذت عنايته ببلاد العرب تقل وتأخرت المرتبات ، ولذلك بدأت الفتنة الخطيرة التى أثارها أحد قواد الفرق غير النظامية وهو محمد أغا المعروف باسم « تركجه بليمز »[1] . ولم تقتصر الفتنة على طلب المرتبات المتأخرة ، ولم تنته الفتنة بتوزيع

---

(١) عين تركجه قائد الفرقة من غير النظاميين ، ومعظمهم من الألبان فى الحجاز فى مايو سنة ١٨٢٣ ، وكان سلوكه فى الحجاز غير مرض حتى أن أحمد باشا شكاه لمحمد على الذى أمر بنقله إلى مصر ، ولكن أحمد باشا عاد وطلب العفو عنه تقديرا لبلائه الحسن فى حروب عسير بعد أن أعلن توبته .

من أحمد يكن إلى محمد على : وثيقة ٩ محافظة عابدين (٢١ رجب ١٢٣٩ = ٢٢ مارس ١٨٢٤ .

تلك المرتبات ، لأن تركجه بيلمز كان يقصد إلى شيء أخطر من ذلك وهو القضاء على الحكم المصرى بالجزيرة ، وتنصيب نفسه واليا على الحجاز باسم السلطان ، وقد تبين فى نهاية الأمر أنه كان متصلا برجال الباب العالى عن طريق والى العراق ، الذى اتصل به وأغراه على الثورة ، ومنّاه بأن يستصدر له مرسوما من الباب العالى بتعيينه واليا على الحجاز .

سنحت الفرصة لتركجه بيلمز لكى يحقق أطماعه ، فمحمد على يعلن أنه ليس لديه من الوقت مايصرفه فى شئون الحجاز ، والجنود متذمرون لتأخير صرف المرتبات لهم ، وانضم إليه ثلاثة آخرون من رؤساء الفرق غير النظامية . أسرع محافظ مكة — خورشيد بك — إلى إخطار القاهرة بتأزم الأمور ، وظن محمد على أن حركة العصيان كان سببها المرتبات المتأخرة ، فأمر بإرسال مايكفى من المال للقضاء على أسباب الفتنة .

ولكن الواقع أن تأخير المرتبات لم يكن السبب الوحيد لثورة تركجه ، بل كان سببا تذرّع به لإثارة القواد والجند ، ولم يستطع المحافظ أن يهدىء روع الجند عندما وعدهم بقرب وصول مرتباتهم ، فقد كان هناك عامل آخر يعمل على إهاجة نفوسهم وتوتر أعصابهم ، وهو وصول بعض الكتائب من الجيش المصرى المنظم الجديد ، ولاحظ الجند الأتراك مبلغ عناية الحكومة المصرية بهذا العنصر الجديد ، فامتلأت نفوسهم بالغيظ والحقد ، ووجد « تركجه بيلمز » سبيلا إلى إثارتهم ، أضف إلى ذلك ما كان يسمعه هؤلاء من المتاعب الكبيرة التى تلقاها الحكومة المصرية فى الشام وتحريض السلطان على إثارتها وإشعال نيرانها .

وعندما علم محمد على فى يولية ١٨٣٢ بأمر تلك الثورة فى الحجاز وأن القائمين بها هم من الجند الأتراك فى الوقت الذى اشتبكت قواته بقوات الدولة العثمانية ،

قرر أن ينتدب وكيل الحرمين — وكان إذ ذاك فى زيارة للقاهرة — للسفر إلى مكة كى يفض النزاع القائم بين خورشيد محافظ مكة ، والقواد الثائرين ، قبل أن يبدأوا الهجوم على مكة ، ورأى أن يستعين بشخصية لها مكانتها واحترامها وهو الشريف « محمد بن عون » أمير مكة لمحاولة القضاء على هذه الفتنة ، فأمر بتعيينه مؤقتا محافظا لمكة بالنيابة . وطلب إليه أن يرسل إلى رؤساء الثوار كتبا ينصحهم فيها بالجلاء عن جدة ، على أن يعود كل منهم إلى مكانه الذى عين فيه من قبل ، وأن يعلن فى كافة أنحاء الجزيرة العربية نبأ انتصار الجيوش المصرية على جيوش الدولة العثمانية ، واستيلاء المصريين على جميع بلاد الشام (١) . كذلك صدرت الأوامر إلى كل من محافظ القصير بمصر ومحافظ « ينبع » بالحجاز ، ألا يرسلا أية ذخائر أو مهمات حربية إلى جدة حتى لا تقع فى أيدى العصاة المرابطين هناك . وفى الوقت نفسه رأى أن يستعمل المكر والدهاء مع الزعيم الثائر تركجه بيلماز فأرسل إليه كتاباً يتظاهر فيه بعدم الغضب عليه ويستدعيه للحضور إلى مصر وأضاف إلى ذلك قوله إننا بحول الله وقوته ، وشوكة مصر وقدرتها ، قد فتحنا قلعة حلب تحت الحكم المصرى وتم استيلاؤنا على الشام جنة الله فى أرضه . . . وقد طرد أهل بغداد الوالى المنصوب عليهم من طرف الدولة العثمانية ، وأقاموا من بينهم والياً آخر إيذانا بالانضمام إلى مصر ، وإذا كان الحال كذلك ، فإن ظهور الفساد فى بلاد العرب التى تحكمها لابد أن يكون ناشئاً من عدم توافق بينك وبين خورشيد بك ، لذلك استدعيناه ، ونطلب منك الحضور ، فبمجرد وصول أمرى هذا ، دع الجنود الذين تحت إمرتك حيث هم ، وتوجه سريعا إلى مصر (٢) .

---

(١) من محمد على إلى محمد بن عون شريف مكة : دفتر ٤٠ معيه تركى وثيقة رقم ٨٢٨ ص ١٣٠ (صفر ١٢٤٨ هـ) .

(٢) من محمد على إلى وكيل محافظ مكة : دفتر ٤٤ معيه تركى وثيقة رقم ١٥٧ ص ٣٤ .

وأرسل كتبا مماثلة إلى بقية رؤساء الجند المتمردين يعتب عليهم ـ متصنعا المودة والعطف ـ ذهابهم إلى جدة مع العصاة ويطلب إليهم أن يعملوا على اكتساب رضاه بطاعتهم للشريف محمد بن عون أمير مكة الذى انتدب محافظا لها ، ثم حذّرهم من منبة التمادى مع تركجة بيلمز فى العصيان وقال لهم فى مرسوم وُزِّع عليهم فى يولية سنة ١٨٣٢: « علمت من الأوراق الواردة أخيراً أنكم قمتم من جدة بعد ذلك القتال وتوجهتم الى مكة المكرمة كى تبسطوا عليها أيديكم بالسوء بزعمكم الفاسد ، وإنى لمرسل عليكم تحت إمرة يكننا أحمد باشا آلايين من مشاة جند الجهادية ، وآلايامن فرسانهم وألف فارس من العربان يزحفون عليكم ، فإن أصررتم على زعمكم الباطل فلا ريب أنهم سيحملون عليكم حملة تشتت شملكم جميعا ، وإن زعمتم أنكم ستجدون السلامة فى الفرار فلن تفلحوا إذن أبدا . فبلاد العرب بأسرها قد التحقت بمصر ولله الحمد ، كما أطلعتم على ذلك فى الوقائع ، وقد أوشكت بغداد أن تصبح تابعة لنا ، وكم من بلاد أخرى ستخضع ، وقد بلغ من يأس رجال إستامبول أن أرسلوا إلينا قبو كتخدانا نجيب أفندى وسيطا للصلح فأينما تُوجهتم فلن تبلغوا السلامة ، واعلموا أن منكم من رُبّى فى بيتى ومنكم من نشأ فى ظل نعمتى . وانى لأرضى لكم الشقاء ، فكفوا أنفسكم عن هذه الدعوى الباطلة ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . . . . . ألا يكفيكم برهانا على قوة مصر أن دولة آل عثمان قد أصابها ما أصابها ، بعد أن فشلت وعجزت عن نضال مصر فجنحت إلى السلم ؟ . وقد أصدرنا مرسومنا هذا وأرسلناه إليكم هذه المرة رحمة بكم وشفقة عليكم ، فاعملوا بمقتضاه واحذروا مخالفة فحواه) .[1] . وختم المرسوم باستدعائهم إلى مصر دون أن يخشوا خطرا .

---

(١) مرسوم صادر إلى تركجة بيلمز وزينل أغا وبكمزجى زاده بتاريخ ٢٤ صفر ١٢٤٨ هـ (٢٣ يوليه ١٨٣٢) . وثيقة ١٥٦ دفتر رقم ٤٤ (دار الوثائق القومية) . .

على أن هذا المرسوم لم يأت بالغاية المنشودة منه ، فقد كان أولئك الثوار يعلمون أن ذهابهم إلى مصر سوف يكلفهم حياتهم ، وفى الوقت نفسه كان زعيمهم تركجة بيامز طامعا فى أن يمنحه السلطان ولاية جدة مكافأة له على ثورته ضد محمد على وأن الحكومة العثمانية لن تبخل عليه بالمساعدة والإمدادات لإنهاء الحكم المصرى فى الجزيرة العربية(١) .

وظنت حكومة الباب العالى أن تركجه بيامز قد استولى فعلا على زمام الحكم فى جده وأن تأييد السلطان له يرفع روحه المعنوية إلى التقدم نحو مكة تمهيداً لإعادة الحكم العثمانى إلى الجزيرة العربية ، فأرسلت إليه فرمانا سلطانيا بمنحه ولاية الحجاز ، وكان ذلك عن طريق والى بغداد الذى كان على صله وثيقة بالزعيم الثائر ، يراسله ويشجعه ، مدعياً أن القوات المصرية قد انهزمت تماما فى سوريا وأن نهاية محمد على قد دنت . وكان الانجليز يتتبعون أنباء تلك الثورة على الحكم المصرى فى الجزيرة العربية وأسباب قيامها ، وقد أرسل القنصل البريطانى (كاميل) إلى (بلمرستون) وزير الخارجية البريطانية يقول إن اعتقاد تركجه بيامز فى قرب نهاية محمد على جعلته يطمع فى القضاء على حكمه فى الجزيرة العربية(٢) .

وأرسل محمد على الشريف محمد بن عون أمير مكة ومحافظها بالنيابة يطلب منه أن يعلن على إلى الملأ انتصار الجيش المصرى على الجيوش العثمانية وقال فى رسالته إليه « إن إبراهيم باشا قد استولى على عكا وجميع بلاد الشام بالقوة المصرية وسطوتها وأن حلب أصبحت على وشك السقوط وأن صيدا وبيروت والقدس وطرابلس

---

(١) انظر Playfair. A History of Arabia Felix or Yemen. Bombay 1859 P, 141.

(٢) F. O. 78 Campbell to Palmerston 78/227 (16 April 1832)

ودمشق انتقلت كلها من الحكم العثمانى إلى الحكم المصرى » (١) .

على أن اعتقاد « تركجه بيلمز » بأن الفرمان السلطانى فى طريقه إليه ، جعله يشمخ بأنفه ويظن أنه أصبح ندا لمحمد على بل أكبر منه مقاما بالنظر إلى رضاء السلطان العثمانى عنه ، فراح يتصرف فى « جده » تصرف الحاكم بأمره ، وقد نهب متاجرها ووزعها بين جنوده وشيعته ، والمشايخ الذين انضموا إليه ، واستعد للهجوم على مكة لذلك رأى محمد على أن تفاقم الثورة وسعى الباب العالى ضده ، ووقوع مكة تحت تهديد زحف الثوار من جدة يستدعى إرسال حملة كبيرة يقودها أحمد باشا يكن حاكم الحجاز السابق الذى كان قد استدعى من قبل إلى القاهرة لتولى منصب ناظر الجهادية (٢) .

ولما أذيع نبأ قرب وصول الحملة ، قويت الروح المعنوية فى صفوف الجند المصريين المرابطين فى مكة ، بقدر ماضعفت روح الثوار وفترت همتهم ، فلما قام تركجه بيلمز من جدة بقواته ليحاول الإستيلاء على مكة ، كانت هناك عوامل كثيرة تعمل على فشل حملته ، أولها المعاونة الصادقة التى قدمها شريف مكة (محمد بن عون) ، وما بذله فى تقديم كل تحتاجه القوات المصرية من تسهيلات ، وثانيها ذيوع أنباء الانتصارات المصرية على الجيوش العثمانية ، وماأشيع عن قرب وصول قوات ضاربة إلى الجزيرة العربية بقيادة أحمد يكن .

---

(١) من محمد على إلى شريف مكه : دفتر ٤٠ معيه تركى وثيقة رقم ٨٢٨ ص ١٣٠ (صفر سنة ١٢٤٨) .

(٢) وقع فى يد محمد على رسالة كان تركجه بيلمز قد أرسلها إلى فيصل بن سعود مؤسس الدولة السعودية الثانية فى نجد يشجعه فيها على الصمود لطرد القوات المصرية من الجزيرة العربية وبعده بمساعدة الباب العالى الذى تؤيده الدول الأوربية الكبرى ضد محمد على . (وثيقة ٤٨ محفظة ٢٦٧ عابدين) .

كان قائد القوات المصرية (إسماعيل بك) يحتل قلعة مكة ، فلما علم بزحف تركجه بيلمز نحو مكة خرج إليه بقواته لمهاجمته قبل أن يصل إلى حدود مكة وتمكن من هزيمته وإجباره على التقهقر إلى جدة . وما أن وصل جدة حتى علم بأن حملة أحمد يكن قد اقتربت من مياه جده ، وشاع النبأ بين قواته فهلعت قلوبهم وخافوا العاقبة ولا سيما أن هزيمتهم قبل وصولهم مكة قد أفقدتهم شجاعتهم وأضعفت حماسهم . عندئذ رأى تركجة بيلمز أن يلوذ بقوانه إلى الفرار . فاستولى على تسع عشرة سفينة مصرية كانت راسية فى الميناء ، ووضع فيها قواته ، حيث أقلعت بهم جنوبا إلى ميناء القنفذة[١] . وعندما أصبحت سفن الثوار على مشارف المرفأ ، وجدتها قد أقفلت أبوابها فى وجه قوات تركجه بيلمز ، ووقفت حاميتها المصرية استعدادا للدفاع عنها ، وعندئذ فكر الزعيم الثائر مواصلة السير جنوباً إلى الموانىء اليمنية .

كانت ميناء الحديدة أول الأهداف التى وجه تركجه بيلمز قواته إليها ، وقد حاصرها وطلب إلى حاكمها ، ممثل إمام صنعاء ، السماح لقواته بالنزول لكى تتزود بالمؤونة والماء ، ورفض الحاكم رغم ضعفه وعدم قدرته على الدفاع وعلمه بأن إمام اليمن كان إذ ذاك من الضعف بحيث لا يستطيع إرسال قوات لرد العدوان ، ولما وجد تركجه بيلمز أن الحاكم يرفض إنزال جنوده ، وجه مدافعه نحو البلدة ، وما أن سمعت حاميتها الضعيفة طلقات المدافع حتى أسرعت بالتسليم ، ودخلت قواته « الحديدة » فى ٢٥ سبتمبر عام ١٨٣٢[٢] .

---

(١) القنفذة من موانى تهامة على ساحل عسير وهى بلدة صغيرة مسورة ، وهى حرفاً (أبها) ، وعلى بعد مائة ميل جنوبى جده ، ويجلب إليها الماء العذب من (الحفير) على بعد ميلين ونصف من البلدة .

(٢) انظر rbay faji ص ١٤١ (وتعتبر الحديدة أكبر مدن تهامه وأعظمها شهرة ، تقع على بعد مائة ميل من ميناء مخا ، وهى محاطة بسور بنى عام ١٨٠٠ ، وله خمسة أبواب وعدة أبراج ، والميناء كثير الصخور عند الشاطىء ، ولذلك تضطر السفن إلى تفريغ حمولاتها على مسافة بعيدة ثم تنقل إلى الشاطىء فى قوارب صغيرة .

الزحف على اليمن باسم السلطان :

بعد أن استتب للزعيم الثائر الأمر فى الحديدة ، عزم على التوغل فى الأراضى اليمنية باسم السلطان العثمانى ، فوجه قواته نحو « زبيد » وكان حاكم « مخا » اليمنى « سيد عبد الله ضريب » موجوداً بالصدفة فى زبيد . فسعى لجمع بعض القوات للمقاومة ، الا أنه غلب على أمره واستولى تركجه بيلمز على « زبيد »(١) وقبض على حاكم مخا وأرسله أسيراً إلى الحديدة حيث قتل هناك بعد أيام قليلة .

تقدم بعد ذلك تركجه بيلمز بقواته إلى مخا فاستولى عليها ، وأعلن أنه يستولى على الساحل اليمنى باسم السلطان العثمانى ، وأصدر أمرا بمنع جميع السفن من الإقلاع من مخا إلى جدة ، ثم حاول الاتصال بثوار عسير ليكونوا عونا له ضد الحملة المصرية القادمة فى الطريق ، إلا أن زعيم الثوار هناك (على بن مجتّل) لم يكن راضيا عن الوجود المصرى أو العثمانى على السّواء ، أما إمام اليمن فقد كان عاجزاً عن رد ذلك العدوان ، فترك تلك المنطقة من بلاده نهباً للحوادث ، بين قوات تركجه بيلمز ، وزعيم الثوار فى عسير ، والقوات الزاحفة نحو الجنوب .

حملة اليمن والسياسة الإنجليزية :

وعندما بدأ محمد على يفكر فى أن يرسل حملته لفتح اليمن ، لم يكن يخشى سوى معارضة الحكومة البريطانية ، وقيامها بالدسائس ضده فى الجنوب العربى ،

---

(١) تبعد زبيد عن الساحل بنحو خمسة وعشرين كيلو مترا — وتقع على الطريق بين عدن ومكة . وهى مدينة مسورة ولسورها أربعة أبواب ، وبها عدد من الأبنية الأثرية ، وقد ذكرها الجغرافى العربى المقدسى المتوفى عام ٩٨٥ م بقوله « بلد جليل ، يسمونه بغداد اليمن ، به تجار وعلماء وأدباء . . . . عليه حصن من الطين بأربعه أبواب . حولها قرى ومزارع ، وهو بلد نفيس ليس باليمن مثله » .

لذلك استدعى « كامبل » ممثل الحكومة البريطانية فى مصر (٣ يونيه ١٨٣٣) وأخبره أن تفاقم أمر الثوار بقيادة تركجه بيلمز فى سواحل اليمن وأراضيه سوف يؤدى إلى إثارة القلاقل فى البحر الأحمر وتعريض أمن السفن التجارية وسلامتها أياً كانت جنسيتها للخطر . وأن من شأن الوجود المصرى فى تلك المنطقة تأمين التجارية الإنجليزية التى تتخذ ميناء مخا مركزا لها . وقد أيد كامبل لدى حكومته إرسال هذه الحملة مؤكدا لوزير الخارجية (بلمرستون) أن من مصلحة بريطانيا فى الوقت الراهن أن يسود الأمن فى اليمن وخصوصا أن محمد على قد عرض صداقته على إنجلترا . ولكن بلمرستون كان شديد الحقد على نمو القوة المصرية فى تلك الأنحاء ، وأخذ يترقب ماسوف يحدث من الأحداث[1] .

الإمام المنصور على بن المهدى :

وفى أواخر عام ١٨٣٢ توفى الإمام المهدى عبد الله ، بينما كانت قوات الثوار العثمانيين بقيادة تركجه بيلمز تغزو أراضى اليمن ، ووقع الخلاف الشديد على الإمامة بين اثنين من إخوة الإمام وسادت الفوضى فى أنحاء البلاد إلى أن نجح أحد أبناء الإمام فى أخذ البيعة لنفسه وهو الإمام « على بن المهدى » . ولكن اليمن فى تلك الأثناء كانت مسرحاً لأحداث هامة كثيرة ترتب عليها نجاح قوات محمد على فى

فتح البلاد بعد أن عجز تركجه بيلمز عن تثبيت أقدامه فى اليمن وأدرك ألاقبل له على مجابهة الحملة الزاحفة عليه ، ووجد السلامة فى الفرار وهرب من « مخا » على ظهر سفينة انجليزية ومعه مائة وعشرون من خاصة رجاله إلى بومباى . وبذلك

---

(1) F, O. 87 to Palmerston 27 October 1833. (Doc 228 (1)

تخلص محمد على من أخطر ثورة ضد حكمه فى الجزيرة العربية ، وخلا الجو للحملة التى قرر إرسالها بقيادة إبراهيم باشا يكن لفتح اليمن وضمه إلى ملكه الكبير فى الشرق العربى .

وكان محمد على حريصا على نجاح حملة اليمن ، ولا يطيق أن يسمع من القائد كلمة ارتياب فى مقدرة القوات المصرية على تذليل الصعاب فى سبيل التقدم نحو صنعاء ، وعندما أخبره أحمد باشا يكن أن الخطة الموضوعة هى أن قواته ستهاجم عسير من جهة أبوعريش ، وقواة أخيه إبراهيم من جهة مخا والحديدة ، وافق محمد على ، ولكنه لم يعجبه قول أحمد باشا فى رسالته « إن العصاة لا يقدرون على مقاومة الجهادية وخصوصا أن تلك الجهات كلها سهول » يكتب إليه يعتب عليه هذا القول ويؤكد له[1] « أن السهل والجبل سيان ، وإنما العمدة على القيادة . إن عساكرنا الجهادية قد حاربوا حتى اليوم فى جهات أكثرها جبال ووعور وصخور ، وكان النصر حليفهم ، من ذلك جبال نابلس والقدس فى الشام وفى الكرك تلك الجهات لم تطرقها أقدام الغزاة ، ومع ذلك فإن البلاء الحسن الذى أبلوه معروف للجميع ، فهضم حقوقهم وقولكم عن تلك الجهات أرض سهل ليس بقول حق ، حماكم الله من سوء التدبير ، فالمصلحة إنما هى بحسن التدبير وسلامة الإدارة ، وكل ذلك ثابت التجارب ، ومن الإنصاف أن تقدروا جنود الجهادية حق قدرهم وألا تغمطوهم حقهم بإسناد ماليس بواقع إليهم » .

ولعل الشر الوحيد الذى كان يخشاه محمد على هو معارضة الحكومة البريطانية التى يعدها لفتح اليمن ، وقد رأينا كيف حاول إقناع القنصل البريطانى بأن الفوضى

(١) من محمد على إلى أحمد يكن . وثيقة رقم ٢٨٥ . دفتر ٦٧ ص ٥٤ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٥١ هـ

التى تسود اليمن بعد وفاة الإمام المهدى فى أواخر عام ١٨٣٢ ؛ وقيام الخلافات بين المرشحين للإمامة ، والاضطراب الذى عم بدخول الثوار الألبانيين بقيادة تركجه بيلمز ، وانضمام بعض القبائل إلى الثورات القائمة فى البلاد ، كل ذلك يؤدى إلى الإضرار بالمصالح البريطانية التجارية وبخطوط المواصلات إلى الهند، وقد ظن أنه « كامبل » قنصل بريطانيا إلى أن الحكومة البريطانية لاتمانع فى إرسال تلك الحملة حينئذ .

ولذلك سار محمد على قدما فى إعداد حملة اليمن التى تكونت قواتها من ١٨٠٠ جندى من القوات المصرية المدربة على حسب (النظام الجديد) إلى جانب أسطول يحمل سبعمائة بحار ، ومعدات كبيرة من مؤن وذخائر مما جعل « كامبل » يؤكد لبالمرستون أن تلك القوات بالإضافة إلى الجيش المصرى الموجود حاليا فى الجزيرة العربية لن تلقى فى اليمن مقاومة تذكر (١).

---

(١) من محمد على إلى ناظر الجهادية . وثيقة ٧٠١ بتاريخ أول صفر ١٢٤٩ (٢٠ يونيه ١٨٣٣) .

أنظر كذلك F. O. 227. Campbell to Palmrsoton, 23 June 1833.

وقد ذكر (هوجارث) أن ستة من الأوربيين رافقوا الحملة كأطباء وجراحين وصيادلة. منهم خمسة فرنسيون وهم فسيير Vaisaiere ، وشدفو Chedufau وبلانات Planat وتامسييه Tamisier ـ وماري Mary وأحد الإيطاليين اسمه جاتى Gatti (هوجارث ص ١٢٣) .

الفصل السابع

التوسع المصرى فى اليمن وسياسة الاستعمار البريطانى

كانت حملة أحمد باشا يكن قد غادرت مصر إلى الجزيرة العربية بقصد القضاء على ثورة تركجة بيلمز ، وكان الباشا مكلفا أيضا بانتزاع موانى اليمن واحدة بعد أخرى ، ثم يتقدم بعد ذلك لتحقيق الأمنية التى طالما جاشت فى صدر محمد على، فتح اليمن .

ولكن عندما وصل أحمد يكن إلى الحجاز ،وجد أن ثورة عسير ضد الحكم المصرى تفاقمت و بدا لمحمد على أن أحمد يكن لن يستطيع أن يوفق بين الاشتباك مع ثوار عسير ، والتقدم نحو ساحل اليمن ،ثم غزو البلاد فى الداخل . ولذلك قرر إرسال حملة أخرى يقودها إبراهيم باشا يكن [1] — شقيق أحمد باشا — تتفرغ لفتح اليمن .

سافر إبراهيم يكن إلى مهمته فى أوائل عام ١٨٣٥ ، بعد أن زوده محمد على بنصائحه و تعليماته وبين له أنه ذاهب إلى اليمن بصفته قائد القوات المصرية و (سر عسكر اليمن) . وسارت الحملة نحو اليمن براً وبحراً . وأخذ الأسطول المصرى

---

(١) إبراهيم يكن (إبراهيم باشا توفيق) هو ابن أخت محمد على وشقيق أحمد باشا يكن الأصغر . ولد بالقاهرة عام ١٨٠٤ (واشترك فى حروب الشام ضد العثمانيين . وكان ضابط الاتصال بين ابن خاله إبراهيم باشا الكبير وكبار الضباط فى الشام ، وعرف ببلائه الحسن فى حصار عكا ومهاجمتها ، ولذلك كانت ثقة محمد على به كبيرة .

تحت قيادة (حافظ على بك) يستولى على موانى اليمن واحدة بعد الأخرى ويترك بكل ميناء حامية مصرية . وكانت « اللحيه » وفى قبالتها جزيرة «قمران» أول الأماكن التى تم احتلالها ، وفى أثناء تقدم الأسطول جنوباً بمحاذاة الساحل لاحتلال ميناء « الحديدة » كانت القوات الرئيسية تحت قيادة ابراهيم يكن تتقدم فى البر ، ووصلت « بيت الفقيه » التى تعتبر سوقا من أسواق اليمن لتجارة البن (١) ثم إستولت على « زبيد » وتم وضع حاميات قوية فى كل منها وعين لكل من الحديدة ومخا وزبيد وبيت الفقيه واللحية محافظا وموظفين لإدارة شؤونها وجمارکها (٢) .

وقد كان سرور محمد على بالغا عندما علم بأن ساحل البحر الأحمر من السويس إلى باب المندب أصبح ساحلا مصريا ، ولم يبق بعد من الموانى الهامة سوى « عدن » ، ورأى أن يشجع رجال البحرية المصرية فوجه إليهم فى شخص قائدهم « حافظ على » — الذى رفع رتبته — كلمات الإطراء والتشجيع .

خصوم الإمام :

بقيت بعد ذلك مهمة إبراهيم يكن لإتمام الحملة فى الداخل . وقد كانت حالة اليمن الداخلية إذ ذاك مواتية لنجاح الفتح . فقد كانت الفتن واضطراب الأحوال وضعف الإمام أكبر معين لإبراهيم يكن . وكان إمام اليمن إذ ذاك (على بن المهدى) فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان شابا ضعيف الخلق ، مبذرا ومستهترا ،

---

(١) انظر William Millburn ; Oriental Commerce, P. 65

(٢) من محمد على إلى إبراهيم يكن ، دفتر رقم ٢١١ عابدين وثيقة رقم ٤٧٧ ١٨ شوال ١٢٥٠ — ١٧ فبراير ١٨٣٥) .

(٣) انظر عبد الواسع اليمانى ، فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ص ٢١ .

وغير محبوب من رعاياه فخرج عليه قائده (عنبر) وانقسمت البلاد فى عهده وفشا الفساد بين الجند ، وقد زار صنعاء فى ذلك العهد رحالة اسمه كروتندن Cruttenden ، وكان ضابطا بالقوات البحرية البريطانية ، وقال فى تقريره عن سكان صنعاء إن أغلبيتهم يمثلون خلق الإمام نفسه ، ضعاف الخلق ، لايعنون إلا باللذة الشخصية كشرب الخمر وإتيان الموبقات فيفسد المجتمع وعمت الفوضى ، وقال إن الإمام كان يشك فى كل أوربى يصل إلى البلاد ظنا منه أنه فرنسى يعمل فى خدمة محمد على .

كان على « إبراهيم يكن » أن يدرس أحوال اليمن الداخلية ، ليجد المنفذ الذى يستطيع استخدامه لضمان النجاح فى السيطرة على البلاد ، وقد عرف فيما عرف ، أن ضعف الإمام المنصور على بن المهدى وسوء سيرته ، أثار عليه شخصيتين لهما وزنهما فى اليمن . أولهما السيد قاسم ، عم الإمام ، الذى كان يرى نفسه أحق بالإمامة من ابن أخيه الذى لا تنطبق عليه شروط الإمامة ، وعلى الأخص ما عرف منه بالاستهتار بالمبادىء الدينية الحقة ، فخرج عليه فى « تعز » محاولا هناك جمع كلمة اليمنيين على البيعة له ، والشخصية الثانية تتمثل فى « حسن بن يحيى » حاكم إقليم « تعز » .

وفى تلك الأيام وصل إلى « تعز » رحالة أوربى آخر هو عالم النبات الفرنسى بوتا P.Emile Botta الذى عمل مدة فى خدمة محمد على كصيدلى خاص ، ثم كلفه متحف التاريخ الطبيعى بباريس بالقيام برحلة فى جنوب الجزيرة للكشف العلمى ، وصل إلى تعز فى خريف عام ١٨٣٦ ، وزار السيد قاسم عم الإمام الذى يرشح

---

(١) بدأ شارل كروتندن رحلته من مخا إلى صنعاء فى عام ١٨٣٤ وقد اكتشف أربعة نقوش باللغة الحميرية .

(٢) انظار D, Avril : L' Arabie Contemporaine p. 96
Hogarth : The Penetration of Arabia P. 127.

نفسه للإمامة وقال عنه : « كان قاسم ـ وهو الذى يريد أن يلى الإمامة بدل ابن أخيه السكير على بن المهدى ـ يسكن حجرة صغيرة متواضعة ، وهو يحاول بهذا أن يظهر أمام الملأ مابين خلقه وخلق ابن أخيه من بون شاسع ، ويعمل على كسب الرأى العام بالتهجد والصلاة المنتظمة والصيام ، ولما أدخلت عليه كان قائما يصلى فوق سجادته المتواضعة ، فانتظرته واقفا حتى أتم سجداته ثم سمح لى بالجلوس ، وبدأ يلقى على بعض الأسئلة فى صوت حنون متواضع ، وشرح لى ماتعانيه البلاد من بؤس وشقاء ، ووصف حبه للشعب وعزمه على إعادة الأمن والنظام وخدمة الدين ونشر مبادئه » .

ويعطينا « بوتيا » صورة أخرى للشخصية الثانية التى أفاد منها إبراهيم يكن فى تمكين حملته من السيطرة على اليمن ، فيصف لنا مقابلته مع « حسن بن يحيى » حاكم تعز الذى كان حانقاً على الإمام ، ويرشح نفسه أيضا للامامة فيقول عنه : « بعد أن انتظرت بضع دقائق أدخلت على الشيخ فوجدته واقفا ، ولعله اختار الوقوف أثناء دخولى حتى لا يجرح كبرياءه بالوقوف لى ، لقد كانت ملابسه بسيطة لا تمتاز عن ملابس اليمنيين العاديين إلا بالشال الكشميرى الذى يغطى به أسفل وجهه ولكن طلعته كانت مهيبة ، فعيناه الجياشتان الواسعتان ، وسحنته الوقورة تدلان على شخصية قوية . وعندما عبرت له عن إعجابى بإقليمه الذى وجدته غنيا منتعشاً بينما كانت كل أقاليم اليمن تعانى الضنك والفقر ، انطلق يحدثنى عن مشروعاته ، ورغبته فى إقرار الأمن والنظام فى اليمن بمساعدة محمد على الذى يتمنى نشر سيادته على اليمن »(١) .

(1) D ' Avril P. 96 — 97

أولئك الثلاثة : إمام اليمن بضعفه وعدم التفاف الناس حوله ، وعمه قاسم الخارج عليه ، وحسن بن يحيى الطامع فى الحكم ، هم الذين سهلوا للحملة المصرية نجاحها فى دخول اليمن . الأول كان السبب كما ذكر إبراهيم يكن فى رسالة لمحمد على « فى رغبة الناس عنه ، ونفورهم منه ، ومشايعة أنصاره للمصريين » . والثانى بخروجه على « المنصور على بن المهدى » وإيغار الصدور عليه ، والثالث بمساعداته القيمة بضم القبائل ووجوه مدينة تعز إلى المصريين ضد إمام صنعاء ، وقد ذكر إبراهيم يكن أنه نفحه بمبلغ كبير من المال ليسهل مهمة الحملة فى إقليم تعز تمهيدا للتقدم نحو صنعاء . وفعلا تم فى يونيه عام ١٨٣٧ تسليم تعز للحكم المصرى ، وتم الاتفاق بين إبراهيم يكن وقاسم عم الإمام على أن يتخذ قاسم « مخا » مقرا لسكنه ، فى نظير منحه مبلغ عشرة آلاف ريال ، ومرتبا شهريا قدره أربعة آلاف قرش (١) . أما تسليم « تعز » فقد تم فى يونيه ١٨٣٧ ، حيث دخلتها قوة مصرية وعين عليها حاكم من قواد الحملة (مصطفى بك) ، وكان إبراهيم يعتبرها مفتاح صنعاء .

وفى تلك الأثناء ، ونتيجة للجهود التى بذلت فى الدعاية ضد الإمام ، وتحريض عمه القاسم ، ثار الجند وهجموا عليه فى داره (بستان المتوكل) فقبضوا عليه وولوا مكانه عبد الله بن الحسين بن المهدى الذى ولى الإمامة باسم الناصر . وهنا يثور الخلاف من جديد بين الإمام الناصر وبين قاسم ، وسعى إبراهيم يكن فى توسيع هذه الخلاف . وحاول الإمام الناصر أن يقاوم القوات المصرية فى تعز فى أوائل أغسطس ١٨٣٧ ولكن قواته انهزمت فى عدة معارك وأرسل إبراهيم

(١) من إبراهيم يكن إلى محمد على . وثيقة رقم ٢٥٩ محفظة ٢٦٢ . (وقد أورد المؤرخ playfair مستندا إلى وثائق شركة الهند الشرقية أن المال الذى نفحه إبراهيم يكن للسيد قاسم اقترضه من تجار مخا بسبب عدم وجود المال الكافى معه .

يكن إلى محمد على يبشره بإتمام فتح إقليم تعز بأكمله « بعد ست معارك قاتل الجيش المصرى فيها قتال الأبطال ، والآن تحتل جنودنا المنصورة كل الأماكن التى استولت عليها حيث يرابطون معتزين بما أحرزوا من مجد وشهرة بعدما ولى الإمام الناصر الفرار إلى صنعاء مدحورا خائب الرجاء »(١) .

وفى هذا الوقت بالذات ، كانت حركة الثورة ضد الحكم المصرى فى عسير قد اشتدت ، وأصبح أحمد يكن حاكم الحجاز والقائد العام للجيش يضن بإرسال الإمدادات إلى أخيه فى اليمن وذلك فى الوقت الذى أخذ الأخير يعد العدة لفتح صنعاء . وكان إبراهيم يخشى أن تفلت الفرصة من يده ، ويرى من الأصوب أن ينتهى فتح صنعاء دون أن يرتبط الفتح بمسألة عسير ، ويتطلع إلى إمدادات تصله من القوات المرابطة مع أخيه ، حتى إذا تم فتح صنعاء ، ودخلت اليمن كلها تحت لواء الحكم المصرى سهل الزحف على عسير من الجنوب والشمال والشرق ، ولذلك استنجد بمحمد على قائلا : « وها هى صنعاء على وشك أن تسقط فى أيدينا والدليل على اقتراب فتحها ؛ أن الإمام لم يظهر علينا فى حرب من الحروب بل انهزم فيها جميعا ، وكانت عاقبته أن وهن ولم يستطع الثبات فهرب لاجئا إلى « صنعاء » وعصاه الجميع ، ولم يفز بشئ من حاصلات البلاد ، ومال الناس إلى الحكم المصرى ودعونا إلى فتح بلادهم ولم يقف بنا عن فتح صنعاء سوى قلة الجند (١) .

ولم يكتف ابراهيم يكن بتلك الرسالة ، بل أرسل معاونه « اسماعيل حقى »

---

(١) من ابراهيم يكن إلى محمد على . وثيقة رقم ٢٠٣ محفظة (٦) عابدين (٢٥ رجب ١٢٥٣)

(١) من إبراهيم يكن إلى محمد على . وثيقة رقم ٢٩٩ محفظة ٢٦٢ عابدين (أول ذى الحجة ١٢٥٣) ٢٥ فبراير ١٨٣٨ .

ليشرح بنفسه لمحمد على أمر الهزيمة التى منى بها الإمام الناصر ، وكيف أن القبائل والعشائر التى تقطن هناك تميل إلى الحكم المصرى وأن « ولى النعم إذا تفضل فى الظرف الذى يعانى فيه الإمام الضيق والشدة ، وتحبو القبائل ولى النعم بحبها وودهـــا ، وأذن بإرسال آلاى أو آلايين إلى اليمن لأدى ذلك إلى فتح صنعاء » (١) . وفى ٢٤ فبراير ١٨٣٨ ، كتب يقول إن موارد اليمن تزداد نتيجة لاستتباب الحكم المصرى ، حتى أن إقليم « تعز » وحده يدر حوالى ٧٠٠ر٠٠ ريال سنويا ، وأن رؤساء القبائل الحانقين على حكم الإمام يتوافدون عليه طالبا للانضواء تحت الحكم المصرى وقد آن الأوان لفتح صنعاء (٢) .

وأراد ابراهيم أن يغرى الباشا بنتيجة هامة تترتب على فتح صنعاء ، وهى ازدياد محصول البن والتحكم فى احتكاره — وكان محمد على يهتم كل الاهتمام باحتكار تلك التجارة حتى أنه أنشأ له فى اليمن ديوانا خاصاً سمى بديوان البن لتنظيم هذا الاحتكار . وانتهز إبراهيم يكن فرصة استفسار محمد على عن سبب قلة محصول البن ، فعزا السبب إلى ظلم أئمة صنعاء وعدوانهم على الناس مما نتج عنه اجتراء القبائل على الاستيلاء على أكثر الأراضى فى مقابل حقوقهم المعتادة ، ثم عمدوا إلى إزعاج أصحاب أشجار البن لجر المنافع ، فتلف المحصول وقل ، ثم أضاف إلى ذلك قوله : « فأما إن فتحنا صنعاء كما هو غاية أملنا ، ورفعت أيدى المفسدين ، وشملنا أصحاب أشجار البن بعين المراحم الخديوية ، وغرست أشجار البن بكل اعتناء ، زاد المحصول سنة بعـــد أخرى وبلغ مركزه الأول » (٣) .

---

(١) من إبرهيم يكن إلى محمد على . وثيقة ٢٦١ محفظة ٣٩٨ (٤ ذى القعدة ١٢٥٣) فبراير ١٨٣٨

(٢) من ابراهيم يكن إلى محمد على وثيقة ٢٨٦ محفظة ٢٦٢ (٢٩ ذى القعدة ١٢٥٣) ٢٤ فبراير ١٨٣٨

(٣) من إبراهيم يكن إلى محمد على : وثيقة رقم ٣١٥ محفظة ٢٦٢ عابدين (٥ ذى الحجة ١٢٥٣)

وفى الوقت الذى كان إبراهيم يكن ينتظر الإذن له بفتح صنعاء بعد إرسال الإمدادات إليه ، بداله أن يرسل قوة للاستيلاء على « عدين » ، وهى حاضرة إقليم هام من أقاليم اليمن بين « زبيد » و « إب » فأمر البكباشى محمد صادق أن يتقدم جنوباً عن طريق جبل الرأس الذى قال عنه إبراهيم إنه بمثابة باب عدين ، ونفذ البكباشى صادق ذلك المشروع وتم دخول عدين فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٣٧ ، وتوافد عليه مشايخ البلاد والأهالى يرحبون به ويطلبون الانضواء تحت الحكم المصرى الجديد .

وأرسل تقريره عنها إلى ابراهيم يكن حيث قال :

« بقوة الخديوى (١) القاهرة ، تيسر لنا دخول عدين ، ودخل شيوخها جميعا فى الطاعة ، وكذلك شيوخ المناطق التى حولها ، ونظرا إلى أن أهالى عدين كانوا متضررين من حكومة صنعاء ، فقد استولى عليهم السرور عند دخول بندرهم . وفى عدين منازل كبيرة ، وحمام ، وفى خارجها حمام معدنى أيضا وهى كثيرة المياه والأشجار ، وأكبر أعمال اليمن » . . وقد وصف القائد خطته الحربية التى اتبعها فى احتلال عدين ، ولعله من الخير أن نقتطف بعض ما جاء فى رسالته لإبراهيم يكن لما فيها من فائدة تاريخية . قال : « وفقاً لأحكام أوامركم العادلة لم يقع أى اعتداء من العساكر على أموال أهالى القرى أثناء الطريق من باب زبيد إلى عدين ، بل عاملنا الناس بالحسنى وأكرمناهم ، كل على حسب درجته ومركزه ، ، وأقدمنا على دخول المدينة بما استلزمته الحالة من العناية ، وبدون استعمال سلاح ، وستشيع أخبار عدلكم ونزاهتكم وهمتكم إن شاء الله ، ويتم الاستيلاء على الأقاليم الأخرى ، وتدخل فى طاعة الحكيم المصرى ، ويقبض على

(٢) كان لقب الخديوى من الألقاب التى يخاطب بها محمد على .

إمام صنعاء ويقدم إلى مقامكم السر عسكرى إذ أن جميع الناس فى هذه الأيام نظرا لضعف الإمام وما ينالونه من الجور والأذى منه قد أشاحوا بوجوههم عنه وتحولوا نحو دولتكم » (١).

وعلى الرغم من هذا النجاح العظيم لجهود القوات المصرية فى اليمن ، كان القائد إبراهيم يكن فى أزمة مستعصية بسبب حاجته الشديدة إلى الإمدادات البشرية ، فجيشه أصبح موزعاً بين الأقاليم اليمنية التى تم فتحها والموانى الساحلية التى وضع فيها حاميات قوية تدافع ضد أى هجوم بحرى أو برى يقع عليها(٢) .

وبينما كان المصريون فى الأقاليم المفتوحة ينتظرون الخطوة التالية ، كانت الحكومة البريطانية تتبع خطوات الحكم المصرى الجديد فى اليمن بعين لاتنام ، وذلك عن طريق عملائها ووكلائها وبعثاتها التى تواصل اتصالاتها فى الجنوب العربى ، ولكنها لم تكن حتى عام عام ١٨٣٧ تريد أن تقدم على خطوة عدائية عنيفة ، ولا سيما أن محمد على كان يبذل أقصى ما فى وسعه لإقناع السلطات البريطانية فى الهند وفى انجلترا أنه راغب فى المحافظة على المصالح البريطانية فى الجزيرة العربية كلها وفى البحر الأحمر ، وكان يعتقد أنه نجح فى ذلك بدليل أن الممثل البريطانى فى القاهرة سلم إليه فى فبراير عام ١٨٣٧ خطاباً من الحاكم البريطانى فى بومباى جاء فيه : « إن الحكومة البريطانية فى الهند ترغب فى تدعيم الصداقة والشعور الطيب بينها وبين الحكومة المصرية ، وأن يزداد التبادل التجارى بين البلدين بما يعود بالفائدة على رعايا الحكومتين(٣) . وجاء فى تلك الرسالة أن الحاكم يطلب من محمد على على السماح للانجليز أن يقيموا فى جزيرة

(١) من البكباشى صادق إلى إبراهيم يكن : ملحق بالوثيقة ٣٩٩ محفظة ٢٦١ عابدين ، (٢ جمادى الثانية ١٢٥٣) ٢٨ سبتمبر ١٨٣٧ .

(٢) من إبراهيم يكن إلى محمد على . وثيقة رقم ٣٩٩ محفظه ٢٦١ عابدين بتاريخ ٢ جمادى الثانية ١٢٥٣

(3) Government of Bombay to Moh. Ali Cenclosure in Campbells of 23 Febvruary 1837 .F. O. 78 - 3185.

قمران — الواقعة تحت حكمه — محطة فحم لتزويد البواخر البريطانية فى طريقها بالوقود . وقد قبل محمد على فى الحال التماس الإنجليز ، وأرسل إلى حاكم اليمن إبراهيم باشا يكلفه تعليماته بالسماح بإقامة هذه المحطة وطلب إليه أن يبذل ما فى وسعه لتسهيل مهمة السفن الإنجليزية فى مياه اليمن . وازداد اطمئنان محمد على إلى صداقة الانجليز عندما أبلغه الممثل البريطانى فى القاهرة شكر وزير الخارجية الانجليزية على سماحه لحكومة بومباى بإقامة محطة الفحم فى قمران لخدمة السفن البريطانية فى البحر الأحمر . وأكثر من ذلك أن محمد على اعتبر تلك الرسالة اعترافا من الحكومة البريطانية بسيادته على تلك الجزيرة وبالتالى على اليمن ، وأن تلك الحكومة تجاهلت حق السلطان العثمانى فى تلك الجهات ، وهو أمر له أهميته الدولية .

على أن ذلك التفاهم الذى ساد بين الحكومتين المصرية والانجليزية حتى النصف الأول من عام ١٨٣٧ ، بدأ يحل محله الشك والارتياب إذ ، أدركت الحكومة البريطانية أن نية محمد على متجهة إلى احتلال عدن وجميع موانى الجنوب العربى فى مدخل البحر الأحمر وفى خارجه ، مما أدى إلى تعديل سياسة المسالمة والتقارب ، ولذلك طلب بالمرستون وزير الخارجية البريطانية من الممثل البريطانى أن يلفت نظر الباشا إلى خطورة الإقدام على ذلك المشروع ، وأن ذلك سوف يثير المشكلات بين حكومة الهند والحكومة البريطانية(١) . وقد أنكر محمد على أن فى نيته القيام باحتلال عدن أو أى منطقة فى شرقها . إلا أن بالمرستون كان يشك فى صدق تلك التأكيدات وبدأ يرقب حركات القوات

---

(1) Palmerston to Cambpell ; f. o. 78-3185. 4 August 1837

المصرية سواء فى اليمن ، أو على ساحل الخليج الفارسى حيث وصلت إلى هناك قوات أخرى بقيادة خورشيد باشا .

وكان الانجليز على يقين من أن كفاح إمام اليمن ضد القوات المرابطة فى اليمن ستنتهى بالفشل ، ثم إن سلطان لحج الذى تقع عدن فى دائرة حكمه يعتبر تابعا لإمام اليمن رغم ادعائه الاستقلال ، ولن يستطيع بدوره أن يقاوم المصريين. وكانت عدن محط أنظار الانجليز منذ احتلال نابليون لمصر حتى أنهم أرسلوا فى عام ١٨٠٢ السير هوم بوبهام (Home Popham) إلى عدن ليعقد مع السلطان اتفاقا تجاريا ، وقد تم ذلك فعلا وكان أول اتفاق يعقد بين سلطان لحج والحكومة الانجليزية(١). وكانت فى سنة ١٨٢٩ قد اتفقت انجلترا مع سلطان لحج على استخدام عدن كمحطة للفحم ، ولما ذهبت باخرة انجليزية وحاولت أن تتزود بالفحم لم تستطع أن تأخذ من الفحم إلا ثلاثين طنا فقط فى اليوم الواحد بسبب قلة الأيدى العاملة فى الميناء البعيدة عن البلدة(٢)ولم يفكر الانجليز فى احتلال عدن إلا بعد أن نجحت القوات المصرية فى احتلال معظم الأراضى اليمنية وإقامة حكومة مصرية كان مركزها (تعز) ، وأوشك إمام اليمن أن يعترف بسيادة محمد على وفتح أبواب صنعاء للقوات المصرية بشروط يرتضيها الإمام .

وقد تأكدت الحكومة البريطانية أن اليمن أصبح فى متناول يد محمد على من تقرير قدمه أحد جواسيسها (الكابتن ما كنزى) الذى استطاع زيارة اليمن فى أواخر عام ١٨٣٦ (٣)، وهو التقرير الذى وصف فيه « ما كنزى »

---

(1) Charles - Ruxz,L, Angleterne et L' Expedition Francaise en Egypt, P. 321

(2) Dodwell ; P. 147

(3) Captain Mackenzie,s paper on Arabia, 4 July 1837, to Paelmerstno (F. O. 78/3185)

القوات المصرية المدربة على حسب (النظام الجديد) بأسلحتها ونظامها ، ووصف سفن الأسطول المرابطة فى البحر الأحمر والتى جعلت محمد على يسيطر على ساحل البحر الأحمر من السويس والعقبه شمالا إلى مضيق باب المندب جنوبا ، ويتحكم فى تجارة اليمن . ورسم خريطة بين فيها مواقع القوات المصرية فى اليمن وقدمها إلى وزارة الخارجية البريطانية (١) للانتفاع بها عند الحاجة . ومن بيان تلك المواقع تأكدت الحكومة البريطانية أن اليمن كله — ما عدا صنعاء — أصبح تحت الحكم المصرى ، وأن القوات المصرية قد اقتربت من عدن . وحتى صنعاء لم تعد هدفاً عصيا . ذلك لأن الإمام الناصر أرسل مندوبا من قبله إلى أحمد باشا يكن الذى كان مقيما إذ ذاك فى « عسير » يلتمس منه تسهيل سفره إلى مصر لعرض الشروط التى يقبل بها الإمام الانضواء فى الحكم الجديد . ووصل ذلك المندوب اليمنى (السيد عبد الرب) إلى معسكر الباشا فى عسير وسلمه رسالة موقعة باسم الإمام (عبد الله الناصر لدين الله) مؤرخة أول جمادى الأولى ١٢٥٤ هـ (٢٣ يوليه ١٨٣٨) ، يرجو فيها الباشا أن « يرسل السيد عبد الرب إلى سيف الإسلام وحامى حمى سلالة النبى محمد بن على باشا »(٢). وقد عرض السيد عبدالرب أهداف بعثته إلى القاهرة على مسامع أحمد باشا ، وطلب منه أن يعمل وسيطا بين إمام اليمن والباشا فى مصر ، وقد بعث أحمد يكن بآراء الإمام التى استخلصها من حديث رسوله إلى محمد على ، وكان أهمها أن الإمام يقر بأن تظل جميع المناطق التى تسيطر عليها القوات المصرية كما هى تحت الحكم الجديد على شرط أن تظل صنعاء تحت حكم الإمام . وقد قال أحمد باشا فى رسالته إنه أخبر رسول الإمام أن الإمام قد أخطأ فى محاولته الهجوم على القوات المصرية مما أساء إلى

(١) Foreign Office General Correspondence. Turkey 1825-1858 (78 — 3185)

(٢) من الإمام الناصر إلى أحمد باشا يكن . ملحق بالوثيقة رقم ١٧٩ محفظه ٢٦٣ عابدين.

علاقاته المستقبلة بالحكومة فى القاهرة ، وأن من الحكمة الآن أن يسمح بإقامة حاكم مصرى إدارى فى صنعاء ، ويقبل اتفاقا بموجبه يتناول الإمام من مصر مرتبا مخترما يوازى المرتب المعين لشريف مكة ، وأن مثل هذا الاتفاق يمكن أن يوافق عليه محمد على (كما سترى عند وصولك الى القاهرة [١]) .

على أن بعثة السيد عبد الرب رسول الإمام لم تعد حاسمة فى موضوع اليمن ، وبدلا من أن يتقرر مستقبل اليمن بين الإمام الناصر ومحمد على ، تدخلت السياسة البريطانية لكى تسيطر على الموقف ، ويصبح الصراع فى اليمن قائما بين بريطانيا ومصر ، ولم يعد التوسع المصرى فى اليمن وحده يشغل بال الحكومة البريطانية ، بل لقد اتسعت تطلعات محمد على لافى البحر الأحمر فحسب ، بل فى الخليج العربى أيضا حيث تهتم انجلترا بمصالحها هناك ، ففى العام الذى اقتربت فيه القوات المصرية من « عدن » ، كانت ترصد حركات القوات المصرية التى تتقدم نحو الخليج بقيادة « خورشيد » ، وبدأت تساورها المخاوف من فكرة غزو العراق [٢] . وهددت محمد على بأن « حكومة جلالة الملكة لا تستطيع أن تتجاوز عن أية خطوة يتخذها لمد سلطانه نحو الخليج الفارسى أو بغداد ، وأنها لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدى إذا أقدم على هذه الخطوة [٣] » .

أما فى الجنوب العربى ، فقد كان أول خطوة لكبح جماح محمد على الإقدام على احتلال عدن تمهيدا لبسط النفوذ الانجليزى على الجنوب العربى ، ولمنع محمد

---

(١) من أحمد يكن إلى محمد على . وثيقة ١٧٩ محفظة ٣٦٣ عابدين (بدون تاريخ)

F. O. 78-321 Compbell (to Palmerston 3 November 1837 (2) (No. 71),

F. O. 78 – 318 Palmerston to Campbell, 8 December 1837 (3) (No. 25).

على من التفكير فى السيطرة على تلك المنطقة . وكانت حكومة الهند البريطانية قد أرسلت فى عام ١٨٣٥ الكابتن هينز Haines من ضباط البحرية ، ومن خبراء التجسس فى منطقة خليج عدن لاكتشاف المنطقة ومدى صلاحية عدن لتكون قاعدة بحرية للسفن الانجليزية ومستودعا للفحم ، ولما عاد إلى الهند لفت نظر حكومة الهند إلى صلاحية ميناء عدن للغرض المنشود (١) .

وكان لابد للانجليز من وسيلة يتذرعون بها لاحتلال « عدن » ، وقد ساقت لهم الأقدار فى يناير عام ١٨٣٧ حادثا استغلوه أبرع استغلال ، فقد جنحت السفينة ديارولات Darya Daulat التى تحمل العلم الانجليزى بالقرب من شاطىء عدن ، وكانت تحمل شحنة كبيرة تقدر قيمها بعشرين ألف جنيه ، فجاء جمع من عرب عدن وهاجموا السفينة وأهانوا من كان على ظهرها من الركاب ونهبوا كل ما استطاعوا نهبه وسلبه ، وادعى الانجليز أن ابن سلطان لحج كان على رأس المهاجمين ، وأن الأشياء التى نهبت من السفينة وركابها بيعت فى أسواق عدن تحت إشراف أحد وكلاء السلطان (٢) . وفى تقرير مطول عن الحادث ، انتهى السير روبرت جرانت حاكم بومباى إلى قرار حاسم ، وهو الاستيلاء على عدن ، وقد جاء فى تقريره : إن تأسيس أسطول من السفن المسلحة التى تجوب البحار فى تلك المنطقة ، ومواصلاتنا البحرية التجارية الشهرية تحتم علينا إقامة محطة إنجليزية على ساحل الجنوب العربى كما فعلنا فى الخليج الفارسى . وإن الإهانة التى ألحقها سلطان عدن بالعلم الإنجليزى ، أدت بنا إلى إجراء عدة تحريات انتهيت منها إلى وجوب امتلاكنا لميناء عدن »(٣) . على أن الواقع الذى لم يذكره السير جرانت فى تقريره

---

(1) Hoskins ; British Routs to India. P. 196

(2) Low : Indian Navy, vol Lll P. 47

(3) Dodwell, 148

أنه كان متأثرا بالاتساع المصرى فى اليمن واقتراب المصريين من منطقة عدن . وتقرر الاستيلاء على الميناء إما صُلحاً إن قبل السلطان عدم المقاومة ، وإما عنوة لو فشلت المفاوضات .

وعلى ذلك اختير الكابتن هينز — الذى سبق أن زار عدن عام ١٨٣٥ — لإجراء المفاوضات مع سلطان لحج « محسن بن فضل » . وقد ابتدأت المفاوضات فى جو من الرهبة والانزعاج من قبل السلطان ، ومحاولة من هينز لإقناعه بالتنازل عن عدن نظير مبلغ من المال ، ويصبح منذ ذلك الحين صديقا لبريطانيا ويأمن على سلطنة لحج من أى عدوان .

وبعد أن انقطع السلطان ومستشاروه فى القصر طول الليل ، قرر السلطان التنازل عن عدن للحكومة البريطانية . وفى ٢ فبراير عام ١٨٣٨ وقع الاتفاق فى مقابل مبلغ من المال .

ويظهر أن سلطان لحج فى تلبيته طلبات الإنجليز وتساهله فى قبول عرضهم كان متأثرا بثلاثة عوامل :

أولا : كان السلطان واثقاً من إصرار بريطانيا على محاصرة ساحل عدن بالأسطول ، وأنه لن يستطع المقاومة .

ثانياً : خوفه على مستقبل سلطنة لحج بعد اقتراب القوات المصرية من حدودها ، وانضمام أكثر القبائل التابعة له إلى إبراهيم باشا بكن بعد أن اتصل بها وأجزل لها العطاء .

ثالثاً : فضّل أن يتفق مع الإنجليز على التنازل لهم عن عدن التى لا يستفيد منها كثيراً بدلا من أن يفقد السيطرة على سلطنته ، وربما كان يطمع أيضا فى التمتع بالحماية البريطانية حتى تتهيأ له الفرصة للتوسع فى الداخل .

إحتلال عدن ١٩ يناير ١٨٣٩ :

ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان الكابتن هينز، إذ عارض ابن السلطان الأكبر فى إتمام تلك الصفقة التى وافق عليها والده . وفى الوقت الذى استعد فيه الكابتن هينز للنزول إلى البر لإتمام الاتفاقية علم بأن هناك مؤامرة دبرت لإلقاء القبض عليه ، والاستيلاء على الاتفاق الذى سبق أن مهره السلطان بخاتمه، وعلى التعهد الذى أقر فيه بأن يدفع للانجليز تعويضا عما سلب من السفينة (داريا دولات) التى كانت تحمل العلم الانجليزى . وهنا أدرك هينز أن السلطان محسن ابن فضل أصبح واقعا تحت تأثيرا بنه وأقاربه ، واكتفى بأن بعث رسالة يحذر فيها السلطان ثم أبحر عائدا إلى بومباى(١) .

وفى شهر أكتوبر سنة ١٨٣٨، وافقت الوزارة البريطانية على أن تتخذ حكومة الهند كافة الاجراءات العسكرية للاستيلاء عنوة على عدن . ووصل «هينز» مرة أخرى إلى مياه عدن فى ٢٤ اكتوبر لجس نبض السلطان لعله يقبل تسليم عدن دون مقاومة إلا أن ابن السلطان نجح فى إقناع أبيه بوجوب الصمود ورفض تنفيذ الاتفاق ، وتحرش الجنود العرب وبعض الأهالى بالسفن البريطانية ، فتراجع هينز مؤقتا إلى جزيرة قريبة انتظارا لوصول القطـــع الباقية من الأسطول البريطانى ، والتى تحمل جنود الاحتلال ، وقد وصلت فعلا فى ١٦ يناير سنة ١٨٣٩(٢) .

ويقول « هينز » فى تقريره الذى رفعه لوزارة الخارجية البريطانية إنه شرع

---

(١) F. O. 78-379, Haines to Campbell. Aden 28 Feb. 1839.

(٢) F. O. 78-379 Capture of Aden. ملحق بالوثيقة السابقة.

منذ وصوله إلى مياه عدن فى كتابة عدة رسائل إلى الرؤساء المدافعين عن قلعة عدن ، والذين حالوا من قبل دون نزول القوات الانجليزية إلى البر ، يحثهم على التسليم دون قتال ، وأن (يضعوا أنفسهم تحت رحمة وكرم الحكومة البريطانية). ووعدهم بأنه فى حالة التسليم دون مقاومة ، سوف تراعى الحكومة صيانة أموالهم وأرواحهم . ومع ذلك فلم يصله أى جواب شاف أو صدى مرض بل صمم المدافعون على المقاومة .

وعندئذ طلب هينز من رؤساء الأسطول قصف «عدن» بالمدافع فى صباح ١٩ يناير ١٨٣٩ ، وبعد ساعتين تهدم الحصن وفر المدافعون وخلت المدينة من معظم سكانها ، ثم نزل جنود الاحتلال إلى الميناء ،ورفع العلم الإنجليزى على قصر السلطان فى الساعة الثانية عشر ظهراً . وختم هينز تقريره بقوله إن جميع الممرات من عدن نحو المناطق كلها أصبحت تحت سيطرة الإنجليز ، وأن السلطان محسن ابن فضل أرسل إليه اعتذاراً عن سلوكه السابق[1] .

ومع أن الحكومة البريطانية كانت لا تعترف لمحمد على بأى حق فى تلك المنطقة باعتبار أنها تابعة لسلطان مستقل ، إلا أن هينز ، الذى عين وكيلا سياسيا للحكومة البريطانية فى عدن ، رأى أن يحيط إبراهيم يكن قائد القوات المصرية فى اليمن علماً بامتلاك البريطانيين لعدن ، فكتب إليه رسالة يقول فيها « لى الشرف أن أفيدكم بأن عدن أصبحت ملكا للحكومة البريطانية منذ ١٩ يناير

---

(١) تقرير الكابتن هينز إلى وزارة الخارجية البريطانية الوثيقة السابقة وتقرير إبراهيم يكن إلى محمد على بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٥٤ محفظه ٢٦٤ عابدين

١٨٣٩ . وقد حالت مشاغل كثيرة دون إفادتكم بهذا النبأ السعيد . وأتمنى أن تكونوا متمتعين بكامل الصحة »(١) . والواقع أنه كان يقصد من هذه الإفادة تحذير القوات المصرية من التقدم نحو الجنوب ، ووضع إبراهيم يكن أمام الأمر الواقع . وقد سبق له عندما وقع سلطان لحج الاتفاق الذى نقضه فيما بعد ، أن أرسل هينز إلى إبراهيم يكن يخبره بأن حاكم الهند (أمره بالتوجه إلى سلطان عدن لحل مشكلتها وأن السلطان وافق على استيلاء الانجليز على عدن حتى حدود « خور مقسع » و « جبل نواهى » ، وإنى راجع الآن من عدن ومتوجه إلى بومباى ومعى مكاتبة من سلطان عدن بخطه لعرض الأمر على السركار الحاكم)(٢)

وأسرع القائد المصرى بإرسال كل هذه المعلومات إلى القاهرة محذراً بأن « أراضى عدن متداخلة فى أراضى بروز الحجرية التى أدخلت حديثاً فى الحكم المصرى ، وأن الآلات الحربية التى لم يكن مسموحاً بدخولها إلى ثغور اليمن أخذت تدخل إلى البلاد من ثغر عدن وبالإضافة إلى ذلك سوف يلحق الضرر جمرك مخا من حيث الإيراد »(٣) .

كذلك علم محمد على بوصول بعض عملاء الإنجليز إلى مخا ليجمعوا العمال والصناع وأرباب المهن كالخبازين والنجارين والبنائين والنقاشين لنقلهم من مخا على ظهر سفن انجليزية إلى عدن بعد إغرائهم بالأجور المرتفعة بقصد تعمير عدن والخدمة فى مينائها حتى هجر مخا عدد كبير من هؤلاء . فأرسل يحذر إبراهيم يكن من النتائج الاقتصادية التى تترتب على إخلاء « مخا » من العمال والصناع وأرباب

---

(1) F. O. 78 - 373 (to His Ebcsliency Iprahim Pasha Comma- ndiug the Egyptian force in yemen) Aden 25 fep. 1839.

(٢) من الكابتن هينز إلى ابراهيم يكن : وثيقة عربيه بدون رقم محفظة ٢٦٧ عابدين (١٣ ذى القعده ١٢٥٣) فبراير ١٨٣٨

(٣) من ابراهيم يكن إلى محمد على (محفظة ٢٦٧ عابدين ٢٢ ذى الحجة ١٢٥٣).

الحرف ويطلب إليه العمل على منع انتقالهم إلى عدن (١) . وإلى جانب ذلك كان خائفاً على تجارة البن التى احتكرها أن تنتقل من مخا إلى عدن حيث تتحول إلى التجار الانجليز فيفقد بذلك احتكاراً ثميناً مضمون الفائدة . وقد ظهرت النتيجة التى كان يخشاها عقب استيلاء الانجليز على عدن اذ وصلته رسالة كتبها محافظ مخا يشكو فيها من أن فتح الانجليز لعدن « قد أثر كثيراً على ورود البن إلى مخا ، وأن عملاء مخا فى تجارة البن قد توارروا عن الأبصار (٢) » .

لقد بدأت متاعب الحكم المصرى فى اليمن منذ أن احتل البريطانيون عدن فقد شرع الوكيل السياسى هينز بمشايخ القرى ورؤساء القبائل المجاورة لعدن ، فى المناطق التى خضعت للحكم المصرى « يتودد إليهم ، ويجذب قلوبهم بالكسوة والهدايا والمرتبات » ، وشكا الحاكم المصرى من أن ذلك « سوف يؤدى بطبيعة الحال إلى خلل بالمصالح المصرية ، وقد تجلى ذلك فى تأخير مشايخ حُجَرية عن الإتيان بالدفعات المعتادة المفروضة عليهم لأن حاكم عدن الانجليزى قد أرسل كتبا إلى المشايخ يحرضهم على عدم دفع الزكاة للجباة التابعين لحكومة مصر وأخذ يغريهم بالهدايا والنقود والخلع (٣) » .

كذلك لاحظت السلطات المصرية فى اليمن أن التوسع الانجليزى فى منطقة « عدن » أخذ يزحف نحو بلدة (بير أحمد) التى وصفها إبراهيم يكن بأنها

---

(١) من محمد على إلى إبراهيم يكن (محفظة ٢٦٧ وثيقة ٢٢٢ (٢٥ ربيع الأول ١٢٥٥)

(٢) من ابراهيم يكن إلى محمد على (وثيقة محفوظة بوزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٢ فبراير ١٨٣٩ رقم ٣٤٢)

(٣) من محمد بك الأمير الاى الثالث إلى ابراهيم يكن (محفظة ٢٦٧ وثيقة ٤٣)

(بلدة متوسطة بين عدن وأحكام مخا) . وعندما علم محمد على باقتراب الزحف البريطانى إلى الجهات التى احتلتها قواته خشى من الاصطدام بالانجليز، فى الوقت الذى كان يحرص فيه على عدم إثارتهم بعد التحذيرات والتهديدات التى كان يتلقاها من الممثل البريطانى ما بين حين وآخر ، لذلك أصدر أمره بالامتناع على مجابهة الإنجليز فى اليمن وأنهم (إذا تجاوزوا الحد إلى بلدة بير أحمد أو ما جاورها فيجب أخذ الأمر بالحكمة وحسن المعاملة من غير إظهار المعارضة فى حق الانجليز)(١) .

لقد أدرك محمد على منذ احتلال الانجليز لعدن أن ذلك الاحتلال كان ضربة موجهة إلى مشروعاته وآماله فى التوسع فى الجنوب العربى ، وأنه بداية لإجلاء قواته لا عن اليمن فحسب بل عن الجزيرة العربية كلها ، وأنه فقد الأمل نهائياً فى كسب صداقة الانجليز مهما أبدى لهم من تنازلات ، وكان صادقا فى شعوره . فقد سبق أن أبدى ملاحظة الممثل البريطانى (كامبل) فى القاهرة بأنه يتمنى لو أقرت حكومة الهند البريطانية أن عدن هى جزء لا يتجزء من الأرض اليمنية وأنه (يقبل بكل سرور إقامة محطة للفحم هناك أو فى أى جهة من جهات حكوماته)(٢) . وقد سخر (بلمرستون) وزير الخارجية البريطانية من إشارة محمد على إلى (حكوماته) وتناول القلم وغضب ووضع خطا سميكا تحت هذا التعبير معتبرا أن الإشارة إلى حكوماته بصيغة الملك خيانة ضد مولاه السلطان العثمانى ، ودليلا لا يقبل الشك على طموحه فى تأسيس امبراطورية مصرية .

---

(١) إدارة صادرة بتاريخ ٢٤ رجب ١٢٥٤ محفظة ٢٦٧ عابدين (سبتمبر ١٨٣٩)

(2) Campbell to Palmerston, June 9, 1888 (F. O. 78-343)

وفى تلك الأثناء لاحظت للسلطات البريطانية أن الصحف الفرنسية تشجع محمد على على تأسيس امبراطورية عربية وراثية وأن ذلك كان بوحى من حكومة فرنسا ، وفى الوقت نفسه كانت فرنسا قد أطلعت القاهرة على ما يبيته الاستعمار الانجليزى للحكم المصرى فى اليمن ، ففى شهر ابريل ١٨٣٩ استقبل محمد على صديقه القنصل الفرنسى فى القاهرة (دروفتى) الذى أخبره أن « امتلاك البريطانيين لعدن لم يكن الغرض منه احتكار تجارة البن فى اليمن وجعل الجزيرة العربية كلها سوقاً لبضائعهم ومصنوعاتهم فحسب ، بل إنهم يهدفون أيضا إلى السيطرة على مدخل البحر الأحمر حتى يساعدهم ذلك فى المستقبل على غزو مصر وضمها إلى أملاكهم (١) » .

ولم يكن (دروفتى) مبالغاً فى تصويره للموقف . فقد ثبت أن فكرة غزو مصر نفسها كانت تراود (بالمرستون) . وقد تبين ذلك جليا عندما طلب فى شهر اكتوبر سنة ١٨٣٩ من القنصل البريطانى « هودجز » Hodges الذى عينه ممثلا سياسيا لبريطانيا فى القاهرة بدلا من « كامبل » أن يوافيه بعد وصوله إلى القاهرة بتقرير وافٍ يبين فيه (مدى كفاءة القوات المصرية التى يستطيع محمد على الاعتماد عليها فى الدفاع عن الاسكندرية دون أن يضطر الى استدعاء قواته المرابطة فى سوريا) ثم أضاف إلى ذلك قوله (وفوق ذلك فإنى أرغب فى إفادتى — بعد دراسة الحالة جيدا — عن عدد القوات الانجليزية بوجه التقريب التى تلزم لهجوم ناجح على الاسكندرية واحتلالها فى حالة قيام الأسطول البريطانى بحملة بحرية على المدينة)(٢) .

(1) Compbell to Palmerston, April 8, 1839 (F. O. 78-373)
(2) Palmerston to Hodges : 3 October 1839 (F. O. 78-377)

وهكذا كان احتلال الانجليز لعدن بداية لاتخاذ سياسة عدائية سافرة لوقف التوسع المصرى فى المناطق العربية التى يطمع الاستعمار البريطانى فى السيطرة عليها ، ولم يكن التوسع فى اليمن وحده هو الدافع لسياسة العنف التى اتبعتها الحكومة البريطانية ضد محمد على ؛ بل لقد راعها تقدم القوات المصرية فى نفس الوقت بقيادة خورشيد باشا نحو الخليج الفارسى ، وبذلك خشيت أن تتحكم مصر فى الطرق الموصلة الى الهند عن طريق الخليج والبحر الأحمر . وتوالت الإنذارات الانجليزية على القاهرة حتى اضطر محمد على الى التفكير فى إيجاد مخرج من الأزمة المستحكمة التى وضعه فيها الانجليز ، فادعى فى ابريل سنة ١٨٣٩ أن السلطان العثمانى قد سبق له قبل عشرة سنوات أن أصدر فرمانا بمنح محمد على حق امتلاك اليمن وأنه يعتبر هذا الفرمان ساري المفعول ، أما عدن فهو يسلم بالأمر الواقع وحق بريطانيا فى امتلاكها [1] .

ومضت فترة كانت من أشق الفترات التى مر بها الحكم المصرى فى اليمن . إذ بينما كان النجاح حليف ابراهيم يكن فى إرساء قواعد الحكم هناك والعمل على رواج تجارة البن واحتكارها ، واقتربت الساعة التى تؤذن بتسليم إمام اليمن بالحكم الجديد ، اشتدت معارضة الانجليز فى بقاء القوات المصرية فى أى بقعة من بقاع اليمن .

(1) Compbell to Palmerston : 8 Alpri 1839 (F. O. 78-373)

الفصل الثامن

الجلاء عن اليمن

لقد بدأ الحكم المصرى فى اليمن منذ عام ١٨٣٥ واستمر حتى عام ١٨٤٠ ، ومع أهمية هذه الفترة القصيرة فى تاريخ الجنوب العربى ، لم يُعن أحد من المؤرخين بدراستها وإلقاء الضوء على أحداثها .

شمل الحكم كل مناطق اليمن تقريبا ماعدا صنعاء التى كان الإمام على وشك الاتفاق بشأنها مع السلطات المصرية . وكانت مدينة « تعزّ » هى حاضرة الحكم الجديد . وكانت كما رأينا من قبل عاصمة لسنحق تعزّية الذى كان مشتملا على « عُدين » و « إب » و « مخا » و « قعطبة » و « حجرية و « وريما » و «تعز» مدينة حصينة تقع على ارتفاع أربعة آلاف قدم تقريبا فوق سطح البحر بها سور سمكه يتراوح بين ٢٥ و ٣٠ قدما ، وهو يشبه السور الذى يحيط بمدينة صنعاء وتكتنفه أبراج يتراوح ارتفاعها فوق السور بين ستة وثمانية أقدام .

ولم يكن فتح تعزّ واحتلالها بالأمر اليسير ، إلا أن إبراهيم يكن استطاع كما رأينا فى الفصل السابق أن يستغل الخلافات التى كانت قائمة بين الإمام وحاكم إقليم (تعزّ) حسن بن يحيى الذى كان طامعا فى إمامة صنعاء عن طريق مد يد المعونة للمصريين ، وفى كسب نصيب من المال الذى نفحه به إبراهيم .

وقد كان إقدام إبراهيم يكن على فتح الإقليم مفاجأة لأخيه أحمد يكن حاكم الحجاز الذى أرسل يحذره من القيام بتلك المغامرة وليس لديه سوى قوات قليلة مبعثرة فى الأقطار اليمنية التى تم فتحها ، ويلومه على البدء بالهجوم دون استشارته ،

ولعله من الخير أن نورد هنا رد إبراهيم يكن إذ يتبين منه أسلوبه الذى اتخذه فى إتمام الفتح . قال : إن سبب عدم استشارتى لدولتكم يرجع إلى عدة أسباب منها أننى كنت عرضت على الجناب العالى إمكان ضبط واخضاع تعز بالنقود قبل إخضاعها بالقوة ، وكنتم أشعرتم أن تبحثوا المسألة وترسلوا النقود اللازمة وبناء عليه أخذنا فى أسباب إخضاع تعز ووفقنا . ولما كان . « جبل الراس » و « عُدين » مجاورين لتعز سقنا عليهما قليلاً من عساكرنا واستدعينا مشايخهم مرغبين إياهم فى الحضور لدينا وبهذا دخلوا فى حوزة حكمنا . وأما الحرب التى قمت بها فى الجبال فسببها أننى رأيت العدو ضعيفا ، ولم يكن عندى علم بالحوادث التى أخرت حضور الجنود من مصر ، وكنا نقدر وجود عساكر كثيرة فى معيتكم ورأينا أنه لو غصت تهامة اليمن بالجنود امتلأت قلوب الأهالى فى الجبال رعباً وفزعاً يؤدى إلى الإستيلاء على أماكن كثيرة . ومع قلة مامعنا فقد احتفظنا بقوتنا القليلة فى الجهات التى أخضعناها سابقاً ولاحقاً ، فلم نعط العدو شبراً من الأرض . كل ذلك ونحن يقظون فى إدارة شئون هذه الجهات ، نهيء الأسباب التى تؤدى إلى إضعاف العدو ببذل جهدنا بما لدينا من الخبرة التى اكتسبناها من خلال إقامتنا بتهامة اليمن منذ سنين وغير خاف أيضاً بعد المسافة بيننا مما يحقق المثل القائل : (يرى الحاضر مالا يراه الغائب)(١) .

واهتم حاكم اليمن بتنظيم الإدارة المصرية فى المناطق التى تمت السيطرة عليها فعين أحد العسكريين محافظاً على تعز وتفرغ هو للتوسع شمالا تمهيدا للانقضاض على صنعاء ، إذا لم يتم الاتفاق مع الإمام الناصر على تسليمها صلحا (٢) .

---

(١) من إبراهيم يكن إلى أحمد يكن . وثيقة ١١٨ محفظة ٢٦٢ عابدين (شوال ١٢٥٣)

(٢) من إبراهيم يكن إلى محمد على . وثيقة ٣١٦ محفظة ٢٦١ عابدين (٢٩ ربيع الأول ١٢٥٣) .

ولما كانت الناحية الاقتصادية هى الأساس الذى بنيت عليه آمال محمد على فى الاستيلاء على اليمن فقد وجه حاكم اليمن أكبر اهتمام للسيطرة على المناطق التى تجود فيها زراعة البن لأنه المحصول الرئيسى الذى عزم الباشا على احتكاره تطبيقا لسياسته الاقتصادية فى البلاد التى حكمها .

وحتى قبل أن تصل قواته إلى اليمن كان معنيّا بتلك التجارة ، حتى أنه جعل (جدّة) مركزاً لاستيراد البن من اليمن منذ عام ١٨١٧ ، وطلب من مأمور التجارة المصرية المقيم فى جدة أن يهتم غاية الاهتمام بشراء أكبر كمية من البن اليمنى سنويا وإرسالها إلى مصر ويتضح ذلك من الأمر الذى أصدره إليه وقال فيه : (حيث يؤمل أن يكون الأمن قد استقرّ فى اليمن الآن يجب أن ترسل من طرفك كل ما يتجمع من المال على التعاقب إلى اليمن ، وأن تجلب البن منها وتبادر إلى إرساله إلى مصر وألا تغفل عن إفادتنا بما يتم وأن تعتنى بمأموريتك(١)).

وبلغ من اهتمامه بتجارة البن أنه أراد تجربة زراعته فى مصر فأرسل إلى مأمور التجارة بجدة أن يوافيه بعدد من شجيرات البن (شتل) مع أحد البستانيين الخبيرين بزراعته ، وفشلت التجربة بطبيعة الحال لأن الشروط الطبيعية التى يجب توافرها لزراعة البن فى الوطن العربى لا تنطبق إلا على بلاد اليمن(٢) ؛ فسفوح المرتفعات هناك تسمح تماماً بجودة المحصول وتربتها غنية لأنها بركانية الأصل ، ويتراوح ارتفاع المناطق اليمنية التى يجود فيها محصول البن بين الألف والألفين

---

(١) محمد على إلى رستم مأمور التجارة بجدة . وثيقة ٧٨ محفظة ١ ذوات تركى عابدين ٢٣ صفر ١٢٣٣ . وكان رستم أفندى معينا أيضا أمينا للجمرك فى جدة.

(٢) مأمور التجارة بجدة إلى محمد على . دفتر ٧ معيه تركى عابدين ٣ جمادى الأولى ١٢٣٩ .

وخمسمائة متر عن سطح البحر فى أعالى الوديان ، وفى وسط مزارع البن يزرع الموز والقات ونباتات أخرى تحمى بأوراقها العريضة شجيرات البن من وهج الشمس وعلى الأخص فى السنين الأولى من نموه .

وينقسم البن اليمنى إلى ثلاثة أصناف ، يدعى كل نوع منه باسم المنطقة التى يزرع فيها ، وأجودها ما يسمى بالمطيرى نسبة إلى منطقة (بنى مطر) ، ويليه ما ينمو فى منطقة (آنس) جنوب مناخه ، والثالث هو النوع المسمى بالحيمى وينمو فى منطقة (الحيمة) . وتعتبر (تعز) التى كانت قاعـــدة الحكم المصرى مركز الولايات الجنوبية التى تنتج البن[1] . لذلك عنيت الحكومة المصرية بإنشاء ديوان خاص بتجارة البن جعلت مركزه فى « مخا » وأطلقت عليه اسم (ديوان مصلحة البن) وعينت له رئيساً (ناظرا) وأربعة من المعاونين وعدداً من الموظفين (قواصين) يوزعهم ناظر المصلحة على أقاليم اليمن المختلفة لجمع محصول البن ودفع ثمنه الذى حددته الحكومه[2] . وأصبحت مراكب البن تتقاطر من اليمن إلى السويس وبخاصة بعد أن تم فتح إقليم تعز كله .

وقد أثار احتكار البن ثائرة التجار هناك فقدموا احتجاجهم الذى عرض على مجلس جده ، ولما عرضت شكواهم على المجلس قرر أن يستدعى حاكم اليمن كبراء التجار وإفهامهم أن (تلك عادة جارية فى جميع الديار المصرية وما ذلك إلا لنفع الناس وزيادة دخلهم)[3] .

---

(1) Bury, W. : Arobia Lufelix or Turks iu Yemen P, 110

(٢) كشف عربى ملحق بالوثيقة رقم ٧٥ محفظه ٢٦٤ عابدين (٢٠ جمادى الأولى ١٢٥٣)

(٣) ملحق بالوثيقه السابقه ـ وكان مجلس جدة ، الذى أمر محمد على بتأسيسه يجتمع ما بين حين وآخر للنظر فى المشكلات التى تثار فى الجزيرة العربية كلها أو كان يرأسه محافظ الحجاز (الحاكم) وفى حالة غيابه يرأسه محافظ جده وأعضاء المجلس من كبار الموظفين كناظر التجارة والسفن والجمرك وناظر الشونة وكان محمد على يقرأ مضابط المجلس ويبدى ملاحظاته .

وظلت تجارة البن فى يد السلطات المصرية فى اليمن إلى أن تم للانجليز الاستيلاء على عدن ، وأخذ نفوذهم يمتد نحو المناطق التى تزرع البن وعندئذ أخذت تجارته تتسرب إلى عدن وقل الوارد منه إلى تعز ومخا، وقد رأينا كيف أن محافظ مخا شكا من أن فتح الانجليز لعدن قد أثر على ورود البن الى مخا وأن التجار الذين كانوا يتعاملون مع مصلحة البن قد توارروا عن الأبصار وأن الممثل السياسى البريطانى فى عدن أخذ يتصل بتجار البن لإغرائهم بتصريفه فى عدن لحرمان محمد على من أكبر مصدر للإيراد من اليمن .

وفى الوقت الذى كانت المفاوضات تجرى بين القاهرة وصنعاء لوضع اتفاقية تحدد مركز الإمام الناصر تجاه الحكم المصرى فى اليمن(١) ، قررت الحكومة البريطانية فى شهر أكتوبر ١٨٣٩ أن تطلب إلى محمد على سحب قواته من جميع بلاد اليمن وطلبت إلى ممثلها فى مصر (كامبل) أن يبلغ (رغبة حكومة جلالة الملكة فى جلاء القوات المصرية عن اليمن) وكانت مفاجأة قاسية لمحمد على لم يسعه إزاءها إلا أن يعطى جوابا غامضا يكتسب به الوقت للتفكير فى هذا الإنذار ، وكان جوابه أنه سوف ينظر فى الأمر بمجرد أن تنتهى المسألة الشرقية بينه وبين السلطان العثمانى والتى تتفاوض بشأنها الدول . وعندئذ أجابه (كامبل) أن ليس هناك أية علاقة تربط بين المسألة الشرقية ومسألة اليمن ، فبحث المسألة الشرقية يخص الدول الكبرى أما مسألة اليمن فهى مرتبطة رأساً بالمصالح البريطانية وحدها ، وأن منطقتى البحر الأحمر والخليج الفارسى هما مجال بريطانيا الحيوى فى تلك المنطقة ولذلك فإنها لا تستشير حلفاءها فيما يخصهما (٢) . ورد محمد على بأنه لا يستطيع فى الوقت الحاضر أن يتخذ أى إجراء لإجلاء قواته عن اليمن ، وأنه

---

(١) انظر خطاب الامام الناصر إلى حاكم الحجاز فى ملاحق الكتاب.

(2) Campblell to Palmerston 2 November (1839 F. O. 78 – 375)

سوف يأمر بوغوص بك ناظر الخارجية المصرية بالرد على هذا الطلب فى الوقت المناسب . ووصل ذلك الرد كتابة فى أواخر أكتوبر ١٨٣٩ وجاء فيه « أن الباشا مشغول بشئون على جانب كبير من الأهمية فى الوقت الراهن ، وسوف ينظر فى المسألة اليمنية فى الوقت المناسب (١) » .

ولم يعجب ذلك الرد بلمرستون وزير الخارجية البريطانية الذى استدعى « كامبل » إلى لندن وعين بدله الكولونيول هودجز وزوده بتعليمات جديدة كان على رأسها البعد عن أسلوب المجاملة واستخدام لغة الحزم والعنف مع الباشا لإقناعه بالجلاء عن اليمن (٢) .

وجاء (هودجز) إلى القاهرة وكان أول تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيه إن حاكم عدن الانجليزية (هينز) أفاده بأن قوات الفرسان التابعة للباشا آخذة فى الازدياد فى اليمن ، وأن العرب القاطنين بجوار (عدن) يتجمعون ضد الحكم البريطانى فى عدن بتحريض من المصريين . وأن محمد على قد أرسل مبعوثا اسمه السيد حسين إلى إمام اليمن يعرض عليه اقتراحين خطيرين الأول أن الباشا على استعداد لمساعدة الإمام بالمال والمؤونة ومده بالرجال والذخيرة إذا أقدم الإمام على مهاجمة الانجليز وطردهم من عدن ويتعهد له أنه بمجرد الانتهاء من الحرب سوف يسلم كل الأراضى المفتوحة فى اليمن إلى الإمام حتى يظل الجنوب العربى فى يد عربية ، والاقتراح الثانى الذى عرضه السيد حسين على الإمام هو أن يقبل الإمام السيادة المصرية على صنعاء على أن يمنح مرتبا كبيرا مدى الحياة » (٣)

---

(1) Bogus Bey to Campbell ; October 1839 (F. O. 78 - 375)
(2) Temperley : Foundations of Britih Foreign Policy. P. 109
(3) Hodges to Palmerston ; 22 March 1840 (F. O. 78-3185)

ملحوظة . لم تشر وثائق عابدين إلى الاقتراح الأول (مهاجمة الإمام للانجليز فى عدن) ولكن العرض الثانى ورد فى كثير من الوثائق .

وحاول محمد على جاهداً أن يتغلب على المعارضة الانجليزية لتوسعه فى اليمن ، وذلك بعرض صداقته عليهم واستعداده لمراعاة المصالح البريطانية فى الجنوب العربى ولكن النتائج السياسية الدولية التى ترتبت على انتصاراته على السلطان واقتراب قواته من الآستانه ، جعلت المسألة المصرية تتجاوز حدود تركيا ، ولم يصبح الخلاف محليا بينه وبين الباب العالى ، بل أصبحت المسألة أوربية تتحالف عليه فيها الدول الكبرى الخمس ، انجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا على أثر اندحار الجيش العثمانى فى موقعة «نزيب» فى ٢٤ يونيه ١٨٣٩ وانحياز الأسطول التركى إلى محمد على ، ثم تلا ذلك إرسال المذكرة المشتركة فى ٢٧ يوليه ١٨٣٩ إلى الباب العالى ، وأدرك محمد على أنه قادم على حرب خطيرة مع الحلفاء ، شغلت باله وتضاءلت معها مسألة اليمن . وشعر بأنه فى أشد الحاجة لقواته المنتشرة فى أرجاء الحجاز ونجد واليمن ، وفى الوقت نفسه كانت الإنذارات الشديدة اللهجة تتوالى عليه من انجلترا تطلب منه إجلاء قواته المرابطة فى اليمن وسواحل الخليج الفارسى.

وفى ١٣ مارس ١٨٤٠ ، أصدر محمد على أمره إلى حاكم اليمن وقائد القوات المصرية بالجلاء عن اليمن ، وتسليم زمام الأمور فيها إلى الشريف حسين بن على حيدر شريف أبو عريش . (١) وغادر إبراهيم وقواته أرض اليمن فى ٩ مايو سنة ١٨٤٠ ، تاركا اليمن لقدرها ، حيث قامت حروب أهلية أرجو أن تكون موضوعا لبحث قادم بإذن الله .

---

(١) من محمد على إلى ابراهيم يكن . إرادة مؤرخة ٩ محرم ١٢٥٦ وثيقة رقم ١٤ محفظة ٢٦٩ عابدين بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٢٥٦ .

مراجع

اولا – المراجع العربية

١ – أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج واليمن (المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥١ – ١٩٣٢) .

– د . أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم . القاهرة مكتبة الإنجلو ١٩٥٨ .

٣ – أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ . القاهرة مطبعة السنة المحمدية ١٩٦٣

٤ – محمود كامل المحامى : اليمن : شماله وجنوبه ، تاريخه وعلاقاته الدولية . بيروت دار الطباعة والنشر ١٩٦٨ .

٥ – هومل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية . ترجمة د . فؤاد حسنين من كتاب « التاريخ العربى القديم » .

٦ – قحطان الشعبى « الاستعمار البريطانى ومعركتنا العربية جنوب اليمن : عدن والإمارات » . القاهرة ، دار النصر ١٩٦١ .

٧ – أمين سعيد « اليمن : تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى » . القاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٩ .

٨ – دكتور السيد مصطفى سالم : (١) تكوين اليمن الحديث ١٩٠٤ – ١٩٤٨ معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٣ .

(٢) الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ (رسالة دكتوراه قررت جامعة عين شمس طبعها على نفقتها الخاصة) .

٩ — ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ـ القاهرة معهد الدراسات العربية ١٩٥٧ .

١٠ — حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام : نشرها وحققها الأب انستاس الكرملى ـ القاهرة ١٩٣٩ .

١١ — عمارة اليمنى (نجم الدين) : تاريخ اليمن ـ تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود . القاهرة ١٩٥٧ .

١٢ — د . محمد عبد الله ماضى : دولة اليمن الزيدية (نشأتها ـ تطورها ـ علاقاتها) مقال بالمجلة التاريخية المصرية حـ ٣ ـ القاهرة ١٩٥٠ .

١٣ — محمد أبو زهرة : الإمام زيد ، حياته وعصره ، آراؤه وفقهه ـ القاهرة دار الفكر العربى ١٩٥٠ .

١٤ — عبد الواسع بن يحيى الواسعى اليمانى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ـ القاهرة المطبعة السلفية ١٩٢٨ .

١٥ — محمد بن أحمد عيسى العقيلى . من تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ . الرياض ١٩٥٨ .

١٦ — الجرافى : القاضى عبد الله عبد الكريم الجرافى اليمنى : المقتطف من تاريخ اليمن (القاهرة دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م) .

١٧ — أمين الريحانى : ملوك العرب جزآن (بيروت ١٩٢٩) .

ثانيا – المراجع الأفرنجية

1 — Admiralty : The Handbook of Arabia 1916. Vol I

2 — D' Arial ; I' Arabie contemporaine, Paris 1818

3 — Bent, J. T. : Southern Arabia (London 1900)

4 — Bury, Wyman : Arabia Infelix, or the Turks in Yemen (London -1915)

5 — Chrichton A. History of Arabia ancient and Modern 2 Vols (Ed--in burgh) 1834

6 — Dodwell H. L. The Founder of Modern Egypt (Cambaige 1931)

7 — Driault : La Formation de l' Empite de Mohamad Ali de L' Arabie au Sudan 1814 — 1825 (1927)

8 — Harris W. B. : A journey Through Yemen (London 1893)

9 — Hogarth D. G, The Penetration of Arabia (London 1964)| —History of Arabia (Oxford 1922)

10—Hoskins H. L. : British Routes to India (New York 1928)

11—jocob, Harold; The Kings of Arabia, The Rise and set of The Turkish Sovereignty in The Arabian Peninsula, 1923 .

12—Iomard, Edme F. ; Etudes Geographiques et Historiques sur L' Arabie. (Paris 1839)

13—Niebuhr, Carsten ; Voyages en Arabie, et en d' autres Pays Cicon--voisins (Amstrdam 1774) — Discrption d' Arabie (Amtr--dam 1774) .

14—Playfair ; Sir Robert Lambert ; A History of Arabia Felix Or Yemen : Selections from The records of Bombay Governmet o mbay 1859 .

15—Raunkiar, R. : Red Sea and Gulf of Aden ; London 1932

16—Tamisier M. O. : Voyage en Arabie, Sejour dans Le Hegaz 2 vols Paris 1840 .

17—Temperley : Foundations of British Foreign Policy (Cambridge 1938)

18—Valentia G. ; Voyages and Travels to India, Ceylon, and the Red Sea, in the Years 1802 — 1806. 3 Vol. London 1809

19—Wallsted (James Raymond) Travelsin Arabia, (London 1934)

20—Scott H. : In the High Yemen (London 1947)

ثالثا ـ الوثائق

ا ـ دار الوثائق القومية بعابدين

١ ـ دفاتر المعية من ١٢٢٢ ـ ١٢٩٠ هـ (١٨٠٧ ـ ١٨٧٤ م) وتحتوى هذه الدفاتر على صور أوامر محمد على إلى مختلف الدواوين والإفادات الصادرة من المعية إلى الدواوين .

٢ ـ محافظ عابدين :

وتحتوى تلك المحافظ على المكاتبات التى وردت من الحاكم العام لليمن والمحافظين وكذلك التقارير التى كان يبعث بها القواد وأمناء الجمارك والأوامر الصادرة من محمد على إلى مختلف جهات اليمن .

٣ ـ محافظ بحر برا :

وهى المحافظ التى تحتوى على الوثائق الخاصة بالسياسة الخارجية والمكاتبات التى تبودلت بين الباب العالى ومحمد على .

ب ـ وثائق وزارة الخارجية البريطانية ـ لندن

وهى وثائق الرسائل التى تبودلت بين وزارة الخارجية البريطانية وممثلها السياسى فى مصر ، وبينها وبين حكومة الهند البريطانية وشركة الهند الشرقية ، وسفراء بريطانيا فى الآستانه ، والمقيمين السياسيين فى البحر الأحمر وخليج عدن .

ملاحق الكتاب

قائمـــة

بأسماء أئمة اليمن منذ عهد المنصور القاسم حتى عام ١٨٤٠

١ ـــ المنصور القاسم الكبير	توفى عام ١٦٢٠
٢ ـــ المؤيد محمد	توفى عام ١٦٤٥
٣ ـــ المتوكل على الله اسماعيل	توفى عام ١٦٧٦
٤ ـــ محمد المهدى الهادى	توفى عام ١٦٧٨
٥ ـــ الناصر محمد	توفى عام ١٧٠٧
٦ ـــ المتوكل قاسم	توفى عام ١٧١٩
٧ ـــ حسين المنصور	توفى عام ١٧٤٠
٨ ـــ المهدى عباس	توفى عام ١٧٧٤
٩ ـــ المنصور على	توفى عام ١٨٠٩
١٠ ـــ المتوكل أحمد	توفى عام ١٨١٧
١١ ـــ عبد الله المهدى	توفى عام ١٨٣٤
١٢ ـــ المنصور على	(لايعرف تاريخ وفاته)
١٣ ـــ الناصر عبد الله	توفى عام ١٨٤٠
١٤ ـــ الهادى محمد	توفى عام ١٨٤٤

من إمام صنعاء عبد الله الناصر
إلى أحمد باشا يكن

مقتطفات من وثيقة رقم ١٧٩ محفظة ٢٦٣ عابدين (جمادى أول ١٢٤٥)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

إن أحسن ماينشأ وينشد ، وينظم وينضد ، ويتحلى به ويعلق ، وتوفى به الحقوق وتوثق ، ويؤم إليه ويؤمل ، ويتوصل بأسبابه ويتوسل ، أزكى سلام يستوهن النسيم لطفه ، ويتحدى الرند عرفه . . . . وتحية تقف فى محراب الجناب وتدخل بسلام من كل باب ، تخص ذات العظيم الصفات ، ذى الفضائل . . الصدر الرئيس الأعظم والجناب المحترم المكرم ، صفى الدنيا والدين وحليف الفخار فى كل حين ، أحمد باشا دام إجلاله ، وزاده جلالا على شريف جلاله .

* * *

أما بعد ، فإنا نحمد الله إليكم ونشكره على ما من من إحسانه عليكم ، ثم لتعلم أيها الباشا المكمل بأنا نعلم أن صاحب السعادة الطويل الجادة المختص بمزيد عناية الملك العلام ذى العزة والاقتدار والافتخام محمد على باشا أطال الله بطوله أيامه وأروى من دماء أعداء الله حسامه لما بلغ إلى مسامعه الواعية وحضرته السامية العالية أحوال اليمن فيما سبق من الزمن من الربش والتخبطات والأعمال المحيطات ثارت حفيظته السليمة وغارت همته السامية العظيمة على البلاد اليمنية . . . لأن يده الطائلة إلى اليمن القوية على ماتحرك فيه وسكن ، مناط به من سلطان الإسلام

والمسلمين ، موقوف على آرائه فى كل حين ، فما وسع أراؤه السديدة وهمته المشيدة — إلا تجهيزكم إلى جهة اليمن ، لمرامات منها ماظهر ومنها مابطن ، فاشتغلتم بقتال قبائل عسير ، ولاشك أنهم بالنظر إلى قبائل اليمن يسير ، واستنبتم على بقية قبائل اليمن وهم الجم الغفير أخيكم الأمير العظيم الشهير إبراهيم باشا ، ولقد عزم وجزم ، واستفحل أمره واستحكم حتى تملك جميع تهامه . فلما تحركت أذناب القبائل هموا بكل أمر مهول ، وعزموا على مابه تجار العقول . . . فخشينا تفرق كلمة المسلمين وارتكاب كل مخوف ومحذور مهين . . . فدعونا الناس إلينا كما يجب علينا ونهضنا بأمر المسلمين . فلما ورد إلى أخيكم صارم الإسلام وحسنة الأيام من الأعداء غير واحد ، وسعوا بيننا وبينه بالمكائد ، وجاءوا بالبهتان والزور وتجرؤوا على النميمة والفجور ليكون لجعل الاتصال بيننا وبينكم قاطع ليتم لهم مايريدوه ويهووه ويقصدوه ، أولئك هم المردة الساعون فى الأرض الفساد .

وأعلم بأن الناس قد جربتهم فإذا صحيح الود منهم عقرب ، فأثاروا الفتنة بيننا ، وأرادوا المحنة باغتيابنا ، ليفرقوا بخبيث سعيهم شمل المسلمين فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر . فلما رفع إلى مسامعنا الواعية وصول السيد الجليل والشريف الفضيل عبد الرب بن اسماعيل اللاهورى نسباً والكوكبانى بلدا بعد مقابلة أخيكم الرحيب ومقامه الرغيب ، فأوجبنا عليه الوصول إلينا وإملاء الأخبار علينا فكان كما قيل عند جهينة الخبر اليقين . . . . وأذهب بماء وصفه لأخيكم صدى القلوب فكان ذلك غاية المطلوب والحاجة التى فى نفس يعقوب ، وتلونا ياحسرتا على مافرطنا ، وترجح لنا إرسال المذكور (عبد الرب بن إسماعيل) إليكم وإليه ليعرض عليكم عليه حقائق الأحوال ويشرح لكم صحيح الأقوال والأفعال ويطلعكم على غاية المأمول والحال بقلب سليم ونظر مستقيم . لنكون نحن وإياكم على صلاح مناهج الحق إخوانا ، ولتدابير

الزيغ والباطل أعوانا ، فما الافتراق إلا مؤذن بالنفـاق وما الشقاء إلا من سوء التدبير على الأطلاق .

* * *

ففى اليمن من الغوغاء والقبـائل ما لا يطفى نارها إلا تدبيرنا بقـدرة الله سبحانه وتعالى ، ومن الربش والتخليط ما لا يصلحه إلا سعينا بمشيئة الله لميلهم إلينا وطاعتهم لأمرنا ونهينا . . . . ولا يخفاكم أن مادة الشقاق قسمت بين آبائنا الأئمة السـابقين وبين السلاطين الأولين على أساس لا يتغير بتغير الحـوادث والدهور بل صار الـكون بينهم صحيح من القرن التاسع معمور . نعم ولنعان رسولنا المذكور (عبد الرب) بالمودة السـابقة واللاحقة إن شـاء الله . . . . فقبائل اليمن قد ألفت الفساد وسلـكت سبيل العناد لأول وهلة وكتبهم إلينـا فى كل حين ، والواصلون منهم إلى مقامنا لا زالوا يحثوننـا على المنازعة وكأنهم لنا ناصحين ، ونحن نحمد الله على بقاء الود لحامى حمى الحرمين وبها إنشاء الله واثقون فائزون والمطلوب منـكم أن تستقبـلوا رسولنا وما أرسلناه من الـكتب الصادرة صحبته بالبشاش التام والإجلال والإقبال والإكرام ، وإبلاغ رسولنا المـذكور غاية المرام . وتصبحونه بمن تركـنون عليه من رجالـكم إلى حضرة من حسنت بوجوده الأيام وصارت أيامه فى فم الدهر ابتسام ؛ سيف الإسلام ، والذاب عن الآل الـكرام ، رفيع المقام ، وصاحب الغزو والاحتشام محمد على باشا أصلح الله جميع الأحوال بوجوده وتابع عليه مزايا إحسانه وجوده ، وتجعـلون معه كتبا رائقة ، وتحقيقات لائقة موافقة ، متضمنة ما أنتم أهل له مـن الإرشاد إلى سبيل الرشاد وتأسيس الوداد وترميم أحوال البلاد . . . .

وما قصر القلم فبلسان رسولنا المذكور الحقيقة بما يعلم . . . ومع حسن النية تبقى الحسنة وتذهب الخطية والله سبحانه وتعالى يجعل الأعمال خالصة لوجهه الكريم ومطابقة لمراده وهو السميع العليم وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين آمين آمين اللهم آمين .

ختم (عبد الله الناصر لدين الله)

حرر شهر جمادى الأولى ١٢٥٤ هجرية

من ابراهيم بكن إلى محمد علي

وثيقة ٣١٥ محفظة ٢٦٢ عابدين (٥ ذى الحجة ١٢٥٣)

هذا ما يرفعه عبدكم الدائم الخضوع

اطلعت على مضمون الأمر السامى الواجب الامتثال الذى زاد صحيفة الصدور شرفا المؤرخ ٢٩ شوال سنة ٥٣ ونمرة ١٥ وقد جاء فيه أن البن لم يعد يورد إلى بنادر اليمن بكثرة كما كان فى السنين السابقة وأن عدم توريده أكان من ضعف محصول البن لقدم أشجاره أم كان ناشئا عن سبب آخر مع أن أشجارها تثمر جيدا ؟ وأنه إذا كان ذلك ناشئا من قدمها فيجب سلوك طريقة فى إقناع كبراء البلاد التى تحت حكمنا وترغيبهم فى غرس أشجار البن وتكثيرها وأن نرفع حقيقة الأمر إلى أعتابكم السامية فأعرض أننا وقد أدخلنا مقاطعتى تعزوعدين فى حوزة الحكومة المصرية عنوة كما رفعت ذلك من قبل إلى أعتابكم العلية وتيسر لنا بفضل أنفاسكم الطاهرة تأديب شرذمة المفسدين الأشرار الذين بمقاطعة تعز فطهر إقليم تعز منهم ونظمت وارداته تنظيما حسناً وقد يوجد فى هذا البلد أشجار بن إلا أنها تعد من قبل الجزئيات كما أنها فنت بسبب الظلم والعدوان الواقعين فى عهد حكام صنعاء أما إقليم عدن فتوجد بجبالها أشجار البن بكثرة إلا أن أكثر تلك الجبال لا تزال خاضعة للمفسدين ولم تطهر مثلما طهر إقليم تعز ويجب تأديب المفسدين القاطنين بتلك الجهات ولكنا أجلنا تأديبهم إلى حين ورود الجنود من المحروسة لأن جنودنا الحالية قليلة والحالة لا تسمح بتفريقهم وتجزيئهم ولأنهم يسكنون جبالا منيعة .

أما البن الوارد إلى السواحل فهو من الجبال التى ليست تابعة للحكومة المصرية، وأما قلة توريده بالنسبة للسنين السابقة فهو ناشىء على مافهم عبدكم هذا عما حدث للرعية من ظلم أئمة صنعاء وعدوانهم منذ قديم الزمن وعن نفور الرعية منهم وعدم التفاتهم إلى الشؤون الملكية فاستولت القبائل على أكثر الأراضى فى مقابل حقوقهم المعتادة وأخذ هؤلاء يزعج أصحاب البن لجر المنافع فتلفت أشجار البن حتى أصبح الشخص الذى يملك عشرة أفدنة لايملك إلا فدان واحد وأصبح الرعية غير قادرين على غرس أشجار جديدة ، كما أصبحوا لا يرجون فائدة من محصولها فقلت أشجار البن. فأما إذا فتحت «صنعاء» كما هو غاية أملنا ورفعت أيدى المفسدين عن الرعية وشمل أصحاب البن بعين المراحم الخديوية وغرست الأشجار بكل اعتناء ورغبة زاد حاصل البن عاماً بعد عام وبلغ مركزه الأول وتوفر كثير من أشجار البن . . . الخ ؟

مضبطة مجلس جدة بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٥٤

بشأن تجارة البن فى اليمن وتنظيم الجمارك

(وثيقة رقم ٣٣ محفظة ٢٦٤ عابدين)

صورة القرار الذى ورد موجها من قبل الديوان الخديوى إلى حضرات أهل مجلس جدة بتاريخ ٦ من ربيع الآخر سنة ٥١ :

لما اطلع الجناب العالى على مضبطة مجلس جدة وعلم منها أن تصدير البن إلى الديار الأخرى قد نيط بصدور الإدارة السنية أصدر أمره السامى إلى حضرة البك ناظر المجلس بإصدار قرار إلى مجلس جدة بأن يشعر المختصين بألا يصدوا أحدا من تجار البن إذا أرادوا أن يصدروا شيئا من البن الذى اشتروه إلى بلاد أخرى وأن يسهلوا أمرهم .

فتشاور المجلس فى الأمر وقرر أن يعهد إلى الديوان الخديوى إشعار أهل مجلس جده بأن يذيعوا على جهات الاختصاص وجوب عدم صد التجار الذين يريدن تصدير البن إلى البلاد الأخرى عملا بالأمر السامى بل بالإذن لهم فى ذلك .

* * *

صورة قرار مجلس الملكية الذى ورد موجهاً من الديوان الخديوى إلى حضرات أعضاء مجلس جدة بتاريخ ٢٣ من ربيع الآخر سنة ٥٣ :

جاء فى الأمر السامى الخديوى الذى صدر إلى حضرة البك ناظر مجلس الملكية أنه علم من المضابط الواردة من مجلس جدة أن تجار (بمباى) لما علموا

أنه لن يؤذن لهم فى تصدير البن إلى البلاد الأخرى أعلموا مجلس جدة أن ذلك سيوقف تجارتهم وأنهم استأذنوا حضرة أحمد باشا يكن فى تصدير البن إذ كانوا يرجون أن مصر ستطلب منه مقدارا كبيرا . وكان المجلس قد أصدر قراره بعدم صد من يريد إصدار البن إلى البلاد الأخرى وأرسله إلى المجلس المشار إليه عملا بالأمر العالى الذى صدر من قبل بذلك . إلا أنه لما كان لا يجوز منع البن الذى يشتريه التجار ويرغبون أن يصدروه إلى الديار الأخرى أمرنا أن نشعر المجلس المشار إليه بذلك ونؤكده عليه مرة أخرى فتشاور المجلس فى الأمر وعهد إلى الديوان الخديوى أن يكتب إلى مجلس جدة كتابا مؤكدا بأن يذيع على جهات الاختصاص ألا يصدوا التجار عن تصدير البن الذى اشتروه ويرغبون فى تصديره إلى البلاد الأخرى عملا بمضمون الإرادة السنية وأن الجناب العالى قد تكرم فأذن للتجار الذين يشترون البن فى إرساله إلى البلاد الأخرى .

قال سليمان أفندى محافظ جدة :

لما أنبىء المجلس أن البن الوارد من عسير عن طريق البر غير مار على جمرك القنفدة يساق إلى مكة مباشرة اتخذ قرارا بمنعه لئلا يطرأ وقف على جمرك القنفدة وقد قيل إن القرار المذكور لم يكن مصيبا للوجوه التى ذكرت فى الأمر المحرر أعلاه وأنه ينبغى فسخ القرار السابق وأن تؤخذ عوائده بموجب الاستمارة المعمول بها بجمرك مخا وأن تعلم الشورى الخاصة إذا كان هناك ما يدعو إلى منعه على هذا النحو رغم هذه الأوامر التى صدرت لتكون على بينة . وقد أحطت بالحقيقة عند قراءته إحاطة تامة فأجيب عن ذلك الشأن أن البن الذى استحسن منعه ليس هو البن الذى يورد إلى مكة عن طريق البر مباشرة مارا على جهة الشرق إلى الطائف .

نعم لا ينبغى منع البن الذى يأتى عن سواحل البحر أى من جهات صبيا وجيزان وحلى لكيلا يدفع عليه جمرك إذا عرج على جمرك القنفذة ودفع هناك رسم جمركة ثم سيق إلى مكة عن طريق البر . وإنما قد تبين أنهم فعلوا ذلك ليهربوه من الجمرك فكانوا هم الذين يهربونه من الجمرك إذا قارناهم بقرارت مجلس الملكية المحررة أعلاه ، فإذا ضبطوا كان بنهم داخلا فى المهرب . وبما أنه ينبغى مصادرة البن المهرب كله قرر مجلس جدة منعه ومصادرته . أما الذين يرغبون فى نقل البن إلى ديار أخرى فقد أذن لهم بذلك فى محله أى فى اليمن عملا بالقرار ، ولايزالون يصدرونه إلى البلاد الأخرى بكثرة بمقتضى ذلك القرار الجارى حكمه حتى الآن ولم يصده أحد .

وقد صدر قرار آخر من مجلس الملكية نسخت صورته بأعلاه يدل على أنه قد عُدل عن وضع إستمارة من أجل جمرك مخا . أما الأصول المتبعة فى جمارك اليمن فى رسوم الجمرك فهى توافق القواعد المرعية بجمرك جدة . وأما جمرك القنفذة فهو من فروع جمرك جدة . والأصول الجارية فى جمرك جدة تقضى أن يؤخذ عُشر البن الوارد إليه عند وروده ونزوله على حساب القنطار فحسب . ولليمن — التى هى مصدر البن أصول خاصة تختلف عن أصول هذه الديار . فإذا اطلع مجلس الشورى الخاص على هذه الحقائق علم أن المراد من مشورة مجلس جدة فى ذلك الشأن لم يكن من البن البرى بل إن المقصودين منها هم الذين كان عليهم أن يمروا على جمرك البلد الذى كانوا فيه ويدفعوا رسم جمركه اتباعا للأصول ثم يوردوه إلى مكة فلم يراعوا هذه الأصول مكرا ودسيسة منهم لكيلا يدفعوا رسومه . وقد ندبنا مندوبا خاصا وأرسلناه ليتخذ نظاما ضابطا لتوريد البن ، فإذا

صودر شيء من هذا البن على هذا النحو فهل يكون الأولى أن يصادر كله لحساب الحكومة أم يُكَفّ عن مصادرته فيسَرَّح بعد الاكتفاء بأخـــذ رسم جمركه ؟ . ولما كان المقصود هو تنظيم ساوك الطرفين واجتناب وقف الحال فإنى أظن أنه يكون خيرا أن تُسَجَّل مضابط مجلس الملكية المنسوخة بأعلاه وجواب مخلصكم فى المضبطة فترسل بالبريد إلى الشورى الخاصة لكى يُعلموا مجلس جدة بما يختاره من الوجهين لنعمل به ونكتب بوجوب تنفيـــذه إلى جهات الاختصاص ، حتى إذا جاءنا أمر نفـــذناه مانؤمر به ، والرأى لحضرات أهل المجلس .

قال سليم أغا :

إن البن الذى يقال له البن البرى ليس البن الذى يأتى من جبل إلى جبل وهلم جرا ، بل هو البن الذى يأتى عن طريق البحر من جيزان وصبيا فيمر على ميناء حلى فهم يخرجونه إلى البر من نواحى حلى فيهربونه من أكناف القنفذة مباشرة إذ أن الميناء المذكور (حلى) تابع لعسير فلو أتوا على القنفذة لما وجدوا محيصا من دفع الجمرك . وقد علم بدلالة كتاب الأغا محافظ القنفذة الذى أرسل من قبل على البن — الذى يساق عن طريق البر مباشرة غير مورد على جمرك القنفذة — رسم جمرك بذلك الجمرك ، فمن أجل ذلك ، ولوجوب إدخال الأمور التى تخالف الأصول تحت الأصول ، رأى المجلس أن يؤخذ جمرك على ذلك البن أيضا ، إلا أن لما جاءنا أمر فى هذا الشأن بهذا المضمون قد نسخت بأعلاه صور القرارات الواردة فيه من مجلس الملكية ليطلع عليها مجلس الشورى الخاص وأجيب عنه الإجابة اللازمة فإنى أوافق حضرة الأفندى المحافظ على تسجيل ذلك

فى المضبطة وإرسالها إلى مجلس الشورى الخاص وتفويض الأمر إلى آراء أهل الشورى المشار إليها بتقديم المضبطة لنعمل بما يختارون بوافق عمر تبودان ومحمد أفندى على رأى حضرة المحافظ المشار إليه كما فوافق على ما أضافه سليم أغا .

فى ١٩ محرم سنة ٥٤

الإمضاءات :

سليمان	سليم	عمر	محمد أمين
ناظر مجلس جدة ومحافظها	ناظر التجارة والسفن والجمرك بجدة	مدير السفن بجدة	ناظر شونة جدة

جاء فى المرفق :

إفادة نمرة ١٠ فى ٢٢ من صفر سنة ٥٤

كُتِب إلى ناظر المجلس المذكور أن المسألة لم توضح من قبلُ هذا التوضيحُ فظهر فيها تناقض ، وأنه ينبغى مصادرة المهرَّب المضبوط كله لحساب الحكومة .

فهرس

الفصل الأول :

مقدمة

صفحة

اليمن من القديم إلى الحديث . . . . . ٥ — ١٧

الفصل الثانى :

العثمانيون والمماليك فى اليمن . . . . . ١٨ — ٢٤

الفصل الثالث :

— الفتح العثمانى لليمن . . . . . ٢٥ — ٣٣

— جلاء الأتراك . . . . . ٣٤ — ٤٢

الفصل الرابع :

اليمن المستقل . . . . . ٤٣ — ٥٢

الفصل الخامس :

محمد على والسياسة الانجليزية فى الجنوب العربى . . ٥٣ — ٦١

الفصل السادس :

ثورة تركيه يلمز وبداية الفتح المصرى لليمن . . ٦٢ — ٧٤

الفصل السابع :

التوسع المصرى فى اليمن وسياسة الاستعمار البريطانى . ٧٥ — ٩٦

الفصل الثامن :

الجلاء عن اليمن . . . . . ٩٧ — ١٠٣

المراجع :

أولا — المراجع العربية ١٠٤

ثانيا — المراجع الأفرنجية ١٠٦

ثالثا — الوثائق ١٠٨

ملاحق الكتاب :

١ — قائمة بأسماء أئمة اليمن من عهد المنصور القاسم حتى عام ١٨٤٠ . . . . . ١١٠

٢ — من إمام صنعاء عبد الناصر أبا أحمد باشا يكن . ١١١

٣ — من إبراهيم يكن إلى محمد على . . . ١١٥

٤ — مضبطة مجلس جدة بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٥٤ . ١١٧

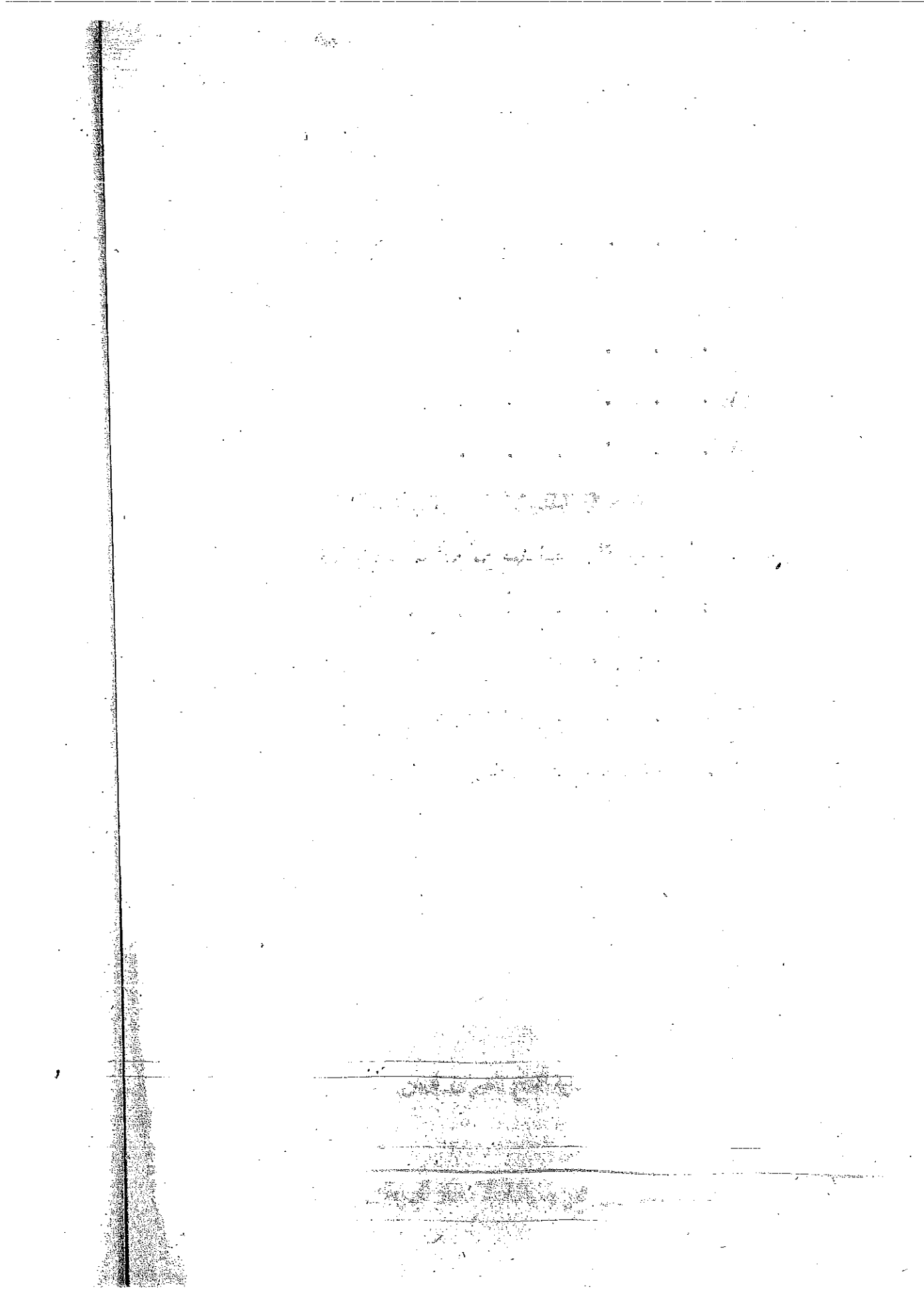

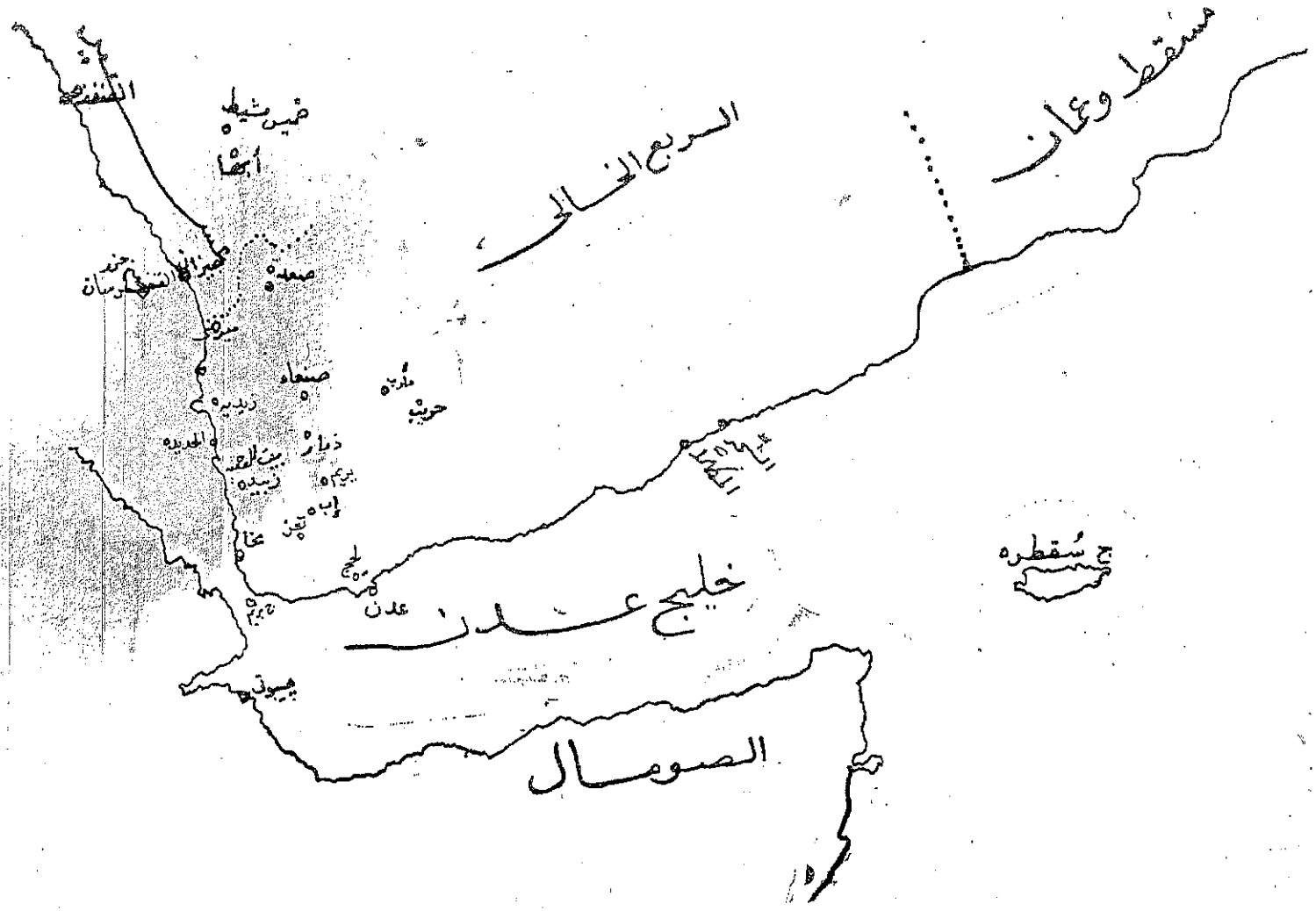
مسقط وعمان
الربع الخالي
ضمير شيله
أبها
صعده
صنعاء
زبيده
الحديده
ذمار
إب
تعز
عدن
خليج عدن
سقطره
الصومال

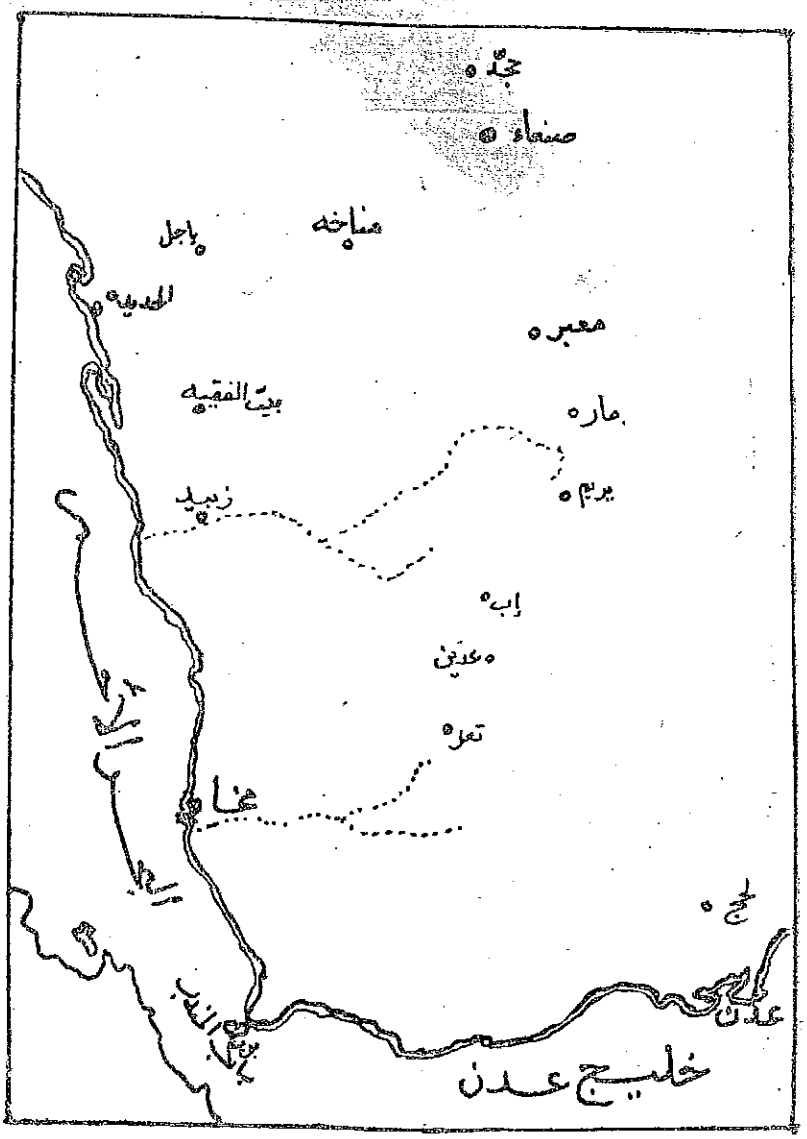
حجة
صنعاء
مناخه
باجل
الحديده
معبر
بيت الفقيه
مارة
يريم
زبيد
إب
عدين
تعز
عدن
لحج
خليج عدن

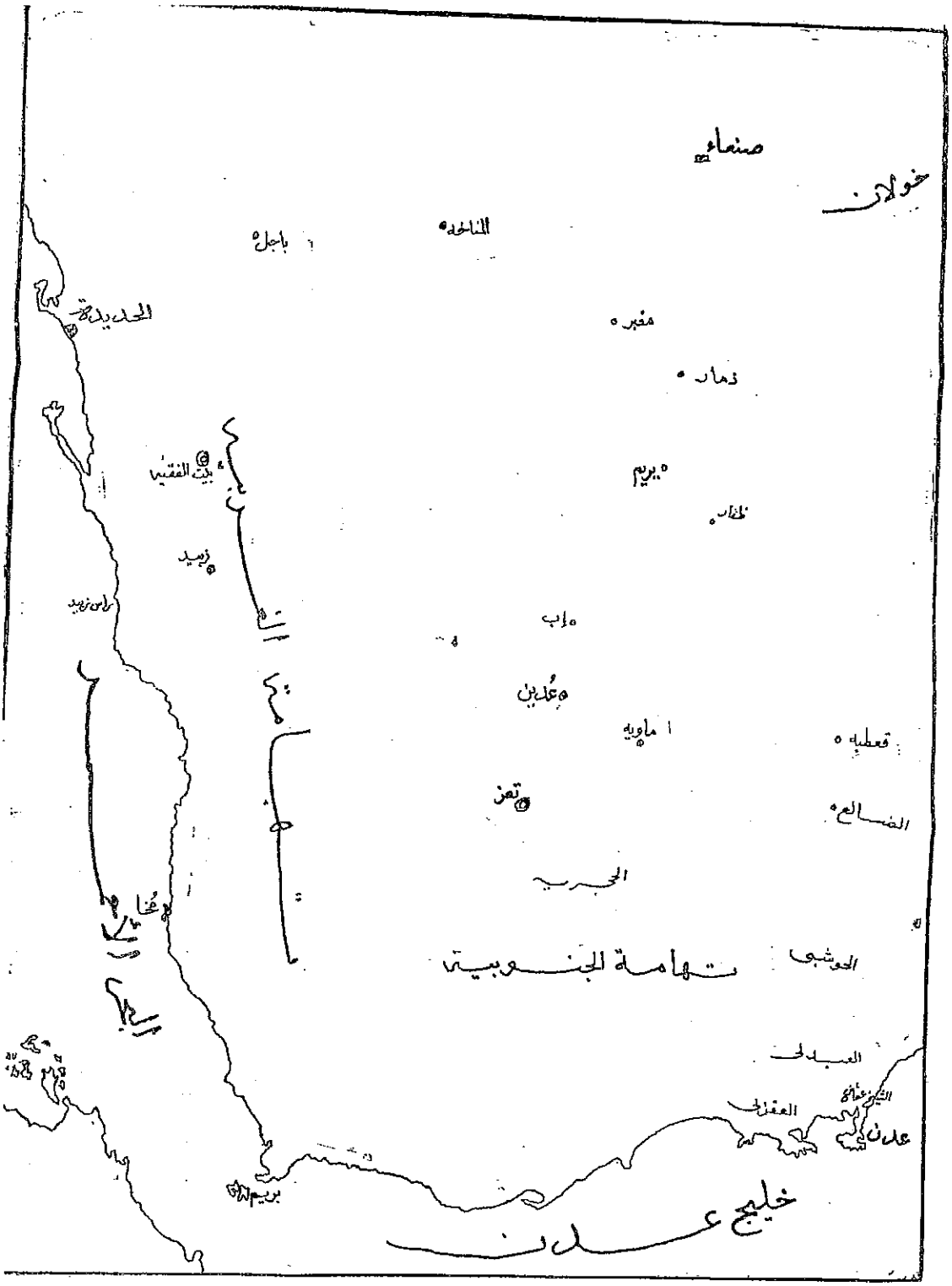
صنعاء
خولان
المناخة
باجل
الحديدة
مغبر
ذمار
يريم
لحاب
بيت الفقيه
زبيد
رأس زبيد
إب
عُدين
اماويه
قعطبه
تعز
الضالع
الحجرية
المخا
تهامة الجنوبية
الحوشبي
العبدلي
العقربي
الشيخ عثمان
عدن
بريم
خليج عدن

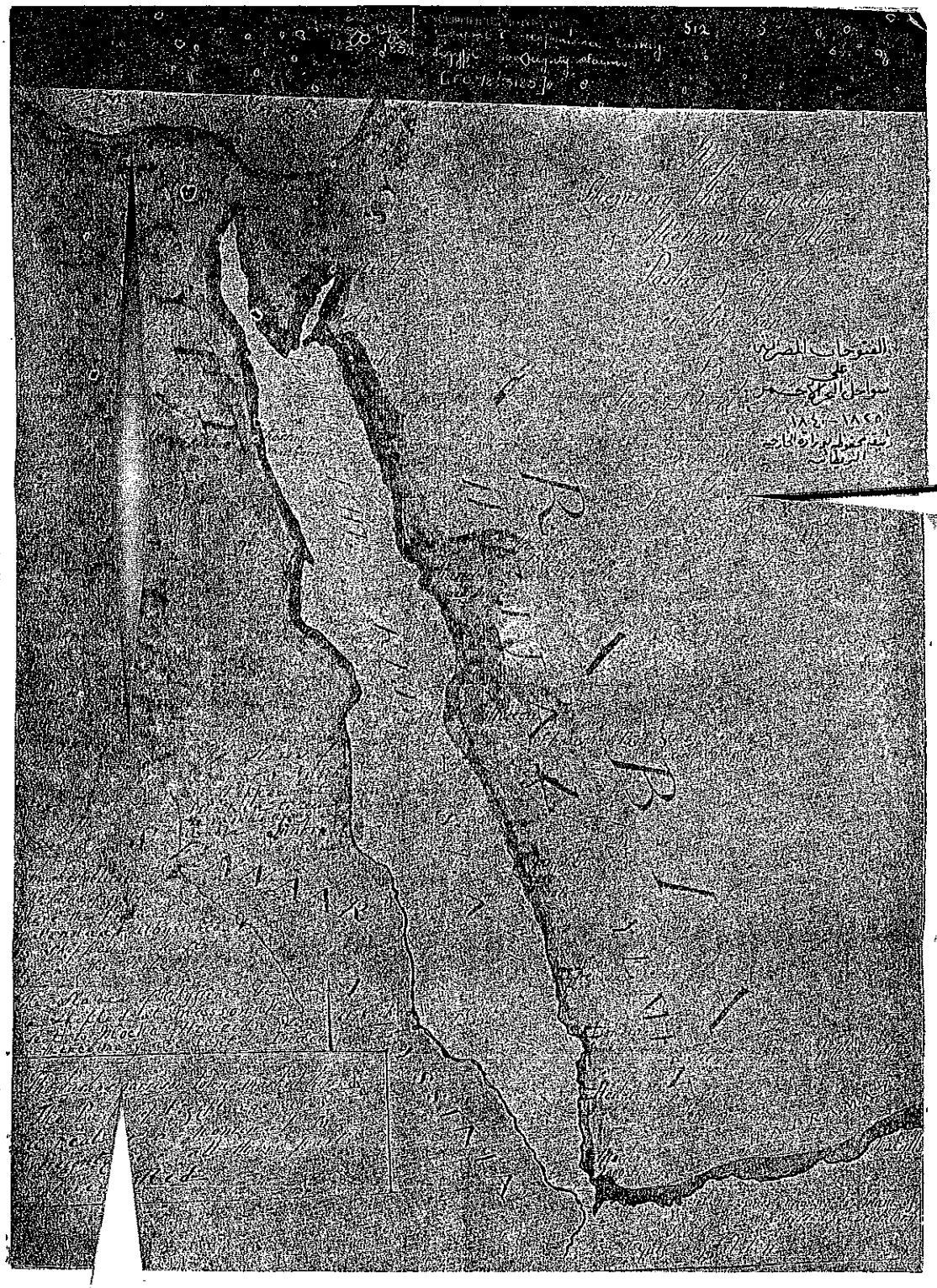

التموجات المصرية
على
سواحل البحر الأحمر
١٨٠٥ - ١٨٠٧
من مجموعة لوحات الحملة
الوطنية